المفارقة في الحديث النبوي
دراسة أدبية

بحث مقدم
إلى المؤتمر العلمي الأول
تجديد العلوم العربية والإسلامية بين الأصالة والمعاصرة
المنعقدة بكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين بدسوق
جامعة الأزهر ٢٠/٣/٢٠٢١
(الجزء الثاني)

إعـــــداد
الدكتـــــور
محمد صبحي عبد الفتاح الجمّال
أستاذ الأدب والنقد المساعد بجامعة الأزهر
أستاذ الأدب والنقد المشارك جامعة جازان

ملخص البحث

المفارقة وسيلة تعبيرية تتجلى فيها حقائق الحياة بما يكتنفها من التناقضات، ولا غرابة فالصراع بين الخير والشر والحق والباطل قائم منذ الأزل، والمفارقة شاخصة في اللسان العربي وحاضرة في القرآن الكريم كما أنها لا تغيب عن الحديث النبوي، مما يؤكد حقيقة أن هذا اللون من التعبير له جذوره في النفس العربية

ولقد اجتهد الباحث في صياغة مفهوم المفارقة وإلقاء الضوء على حضورها في التراث العربي مقتصرا على أظهر أنماطها وتتمثل في:

١-المفارقة التصويرية التي تبرز التناقض بين طرفين متقابلين؛ حيث تساق العبارات في إطار من التجاور دون تعليق لإبراز المفارقة من جهة وتحفيز المتلقي نحو الفهم العميق والتأثر الإيجابي من جهة أخرى

٢-المفارقة اللفظية، وتنشأ من كون اللفظ يدل على معنيين: الأول ظاهر، والثاني خفي، ويتضافر هذا النمط مع عدد من أنماط التعبير البلاغي مثل: الكناية والتعريض والتهكم والسخرية والمشترك اللفظي.

٣-مفارقة الشخصيات وتقوم على الاستعانة بالنماذج البشرية المتناقضة للتعبير عن الفكرة وتقريبها إلى الأذهان، وتعد الشخصيات بمواقفها ومصائرها محورا أساسيا لهذا اللون من ألوان المفارقة.

وقد نجحت المفارقة في إبراز القيم الدينية ورسم النماذج الإسلامية وتحقيق الغايات التربوية والتشريعية للحديث النبوي.

الكلمات المفتاحية

الحديث النبوي – المفارقة في التراث العربي – المفارقة اللغوية – مفارقة الشخصيات – المفارقة التصويرية – المفارقة اللفظية.

Paradox in the Prophetic Hadith

Paradox is an expressing means in which life facts are clearly reflected with its contradictions . That is not surprising because conflict between good and evil and between truth and falsehood has been in existence since very early .This study has proved that paradox is clearly used in Arabic and it is also obvious in the Holy Quran .In addition , it is not neglected in the Prophetic Hadith .This exactly assures the fact that this type of expression has its deep roots in the Arab character .

The researcher has worked hard to formulate the concept of paradox and to shed lights on its presence in Arabic heritage focusing on showing its clearest patterns which are as follows:

(1) The figurative paradox that shows contradiction between two opposite sides .In this type , phrases are formed in a style of adjacency without comment to highlight the gravity of paradox on one hand and to stimulate the recipient to get deep understanding and positive affectedness on the other hand .

(2) Verbal paradox : It arises from the idea that the word refers to two different meanings .The first one is clear while the other meaning is hidden .This pattern unites with a number of rhetoric figures of speech such as metonymy ,allusion ,sarcasm and irony .

Paradox has succeeded in revealing religious values , depicting Islamic models and achieving legislative and educational aims for the Prophetic Hadith .

(3) The paradox of characters is mainly based on contradicting human types to express ideas and clarifying them in minds. Characters with their situations and their concepts are the main pillar of this type of paradox

مقدمة

أحمد الله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله ولي الصالحين وأشهد أن محمدا رسول رب العالمين خير مبعوث إلى خير أمة بخير دين وبعد،

فإن المفارقة محور الحياة وجوهر الوجود، ونحن لا نستطيع أن ندرك حقيقة الحياة وجوهرها إلا من خلال إدراكنا لما يكتنفها من المتنافرات والمتناقضات، ولا غرابة فإن الصراع بين الحق والباطل، والتعارض بين الخير والشر، قائم منذ الأزل حتى نهاية الوجود،

ومن بدائه الأمور أن الحديث النبوي الشريف ليس نطقا عن هوى أو تعبيرا عن رغبات فائرة أو عواطف بشرية عارضة بل هو وحي إلهي وإلهام لدنيّ وأدب رباني وتجليات نبوية يناط بها بيان المنهج وتبليغ الرسالة وإخراج العالمين من ظلمات الكفر والشرك والضلال إلى نور الإيمان والهداية والتوحيد ؛ وقد كان من عون الله لنبيه أن أمدّه بالفصاحة التي تعلو كل فصاحة وعلمه البيان الذي يتراجع بإزائه كل بيان، وصدق الرسول الكريم إذ يقول: أدبني ربي فأحسن تأديبي، ولله در الجاحظ الذي قال في وصفه لبيانه ﷺ: (فَلَمْ يَنطِقْ إلاّ عنْ ميراثِ حكْمَةٍ، ولمْ يَتكلّمْ إلاّ بِكلامٍ قد حُفَّ بالعِصْمَةِ، وشيدَ بالتّأْييدِ، ويُسِّرَ بالتَّوفيقِ، وهو الكلامُ الذي ألقى اللهُ عليْهِ المحبّةَ وغَشّاه بالقَبولِ، وجَمعَ له بَينَ المهابَةِ والحَلاوةِ وبَيْنَ حُسنِ الإفهامِ وقِلّةِ عدَدِ الكلامِ ... لمْ تسْقُطْ لهُ كَلمةٌ، ولا زَلّتْ بهِ قدَمٌ، ولا بارَتْ لهُ حُجّةٌ، ولمْ يقُمْ له خصْمٌ، ولا أفْحمهُ خَطيبٌ، بلْ يبُذُّ الخُطَبَ الطّوالَ بالكَلِمِ القِصارِ، ولَمْ يسْمعِ النّاسُ بِكلامٍ قَطّ أعَمَّ نفْعًا، ولا أقْصدَ لَفْظًا، ولا أعْدلَ وزْنًا، ولا أجْملَ مذْهبًا ولا أكْرمَ مَطْلَبًا، ولا

أحْسنَ مَوْقِعًا، ولا أسْهَلَ مخْرَجًا، ولا أفْصَحَ مَعْنى، ولا أبْيَنَ فَحْوى، مِن كَلامِهِ صلى الله عليه وسلم ([1])

ويقول الرافعي في وصف البلاغة النبوية (إذا نظرت فيما صح نقله من كلام النبيﷺ على جهة الصناعتين اللغوية والبيانية رأيته في الأولى مسدد اللفظ، محكم الوضع، جزل التركيب، متناسب الأجزاء في تأليف الكلمات، فخم الجملة، واضح الصلة بين اللفظ ومعناه واللفظ وضريبه في التأليف والنسق، ثم لا ترى فيه حرفا مضطربا، ولا لفظة مستدعاة لمعناها أو مستكرهة عليه، ولا كلمة غيرها أتمّ منها في أداء للمعنى وتأتّيا لسرّه في الاستعمال،

ورأيته في الثانية حسن المعرض، بيّن الجملة، واضح التفصيل، ظاهر الحدود، جيد الرصف، متمكن المعنى، واسع الحيلة في تصريفه، بديع الإشارة، غريب اللمحة، ناصع البيان، ثم لا ترى فيه إحالة ولا استكراها، ولا ترى اضطرابا ولا خطلا، ولا استعانة من عجز، ولا توسعا من ضيق ولا ضعفا في وجه من الوجوه) ([2])

وغني عن البيان أن ما ذكره الجاحظ والرافعي وسواهما عن بلاغة الرسول ﷺ ليْسَ مُجرّدَ مدح أو إطراء وإنما هو ثمرة القراءة المتأنية والدرس الفاقه والإيمان العميق والوعي التام بفصاحته وبلاغته وهديه ﷺ.

ويهدف هذا البحث –وقد خطت أسطره الأولى في المسجد النبوي الشريف– إلى إلقاء الضوء على إحدى الظواهر الأسلوبية في الحديث النبوي؛ واستشراف أدب النبوّة وتبين طرائقه في التعبير عن القيم الإسلامية والهدي الإلهي وهو أسلوب المفارقة الذي

---

(١) البيان والتبيين دار الهلال، بيروت ١٤٢٣ ، ١٣/٢

(٢) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية دار الكتاب العربي ط التاسعة ٣٢٥/١٩٧٣

يعد من أرقى الأساليب العربية بما يعبر عنه من التضاد وما يحمله في طياته من المقارنة بين الصور والألفاظ وسائر المتناقضات فضلا عما يوحي به من التفاعل الإيجابي بين المرسل والمتلقي، يقول الدكتور سعيد جمعة: (وإذا كانت المفارقة شاخصة في اللسان العربي القديم ، وحاضرة في القرآن الكريم فهي كذلك لا تغيب عن الحديث النبوي، مما يؤكد حقيقة لا تغيب عنّا وهي أن هذا اللون من التعبير له جذوره في النفس العربية قبل أن يكون له جذوره في اللسان العربي) ([1]).

وقد جاء هذا البحث على النحو التالي: مقدمة وتمهيد وثلاثة مباحث:

المبحث الأول: المفارقة التصويرية

المبحث الثاني: المفارقة اللفظية

المبحث الثالث: مفارقة الشخصيات

بالإضافة إلى الخاتمة والفهارس، أسأل الله عز وجل أن يجنبني الزلل وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) المفارقة في اللسان العربي مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ،١٢، ٢٠١٥

التمهيد

مفهوم المفارقة

لم تعرف الحياة الأدبية مصطلحا تعددت مفاهيمه وتنوعت أنماطه واختصم فيه الدارسون والباحثون كالمفارقة، ولعل السر في ذلك ما يندرج تحتها من أنماط وما يتفرع عنها من ظواهر وما تتجلى فيه من أساليب، وهذه محاولة لصياغة مفهوم المفارقة في اللغة والاصطلاح،

أولا المفارقة في اللغة: في معجم مقاييس اللغة يقول ابن فارس: (فرق: الفاء والراء والقاف أصل صحيح يدل على تمييز وتذييل بين شيئين)([1])

وما جاء في القاموس المحيط لا يتعدى معنى الفرق أو الفرقان: (فرق بينهما فرقا وفرقانا بالضم، (فيها يفرق كل أمر حكيم) أي يقضى، الفرقان: القرآن ، وكل ما فرق به بين الحق والباطل فهو فرقان، ولهذا قال تعالى: (ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياء وذكرا للمتقين) وقيل: فرقناه أي أنزلناه مفرقا)([2]) وتؤكد المعاجم العربية أن مفهوم المفارقة يومئ إلى الانفصال والافتراق ، وهي مأخوذة من الفرق وقد ورد في معجم العين أن الفرق هو موضع المفرق من الرأس في الشعر)([3])

ثانيا المفارقة في الاصطلاح: يقول الدكتور عبد العزيز الأهواني: المفارقة تسجيل التناقض بين ظاهرتين لإثارة تعجب القارئ دون تفسير أو تعليل) ([4])

---

(١) مقاييس اللغة ابن فارس ت عبد السلام محمد هارون دار الفكر ١٩٧٩مادة: فرق

(٢) القاموس المحيط للفيروزآبادى ت: مكتب تحقيق التراث بإشراف مؤسسة الرسالة بيروت ط : الثامنة ٢٠٠٥ مادة : فرق

(٣) معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي ت د. عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية ط الأولى ٢٠٠٣ مادة: فرق

(٤) ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر مكتبة الأنجلو ط١، ١٩٦٢ ١٠٥

ويرى محمد العبد أن المفارقة نوع من التضاد بين المعنى المباشر المنطوق والمعنى غير المباشر)([١]) ويقول دي سي ميوك: (تطلق كلمة (مفارقة) على الأدب الذي يجاور بين وجهات نظر مختلفة أو متعارضة بغرض التعبير عن معنى أوسع وأغنى مما يمكن فعله في حالة التقرير المباشر، أو لإبداء الرأي بإظهار الوعي بما يحمل نقيض ذلك الرأي)([٢])

ويقول أيضا: في النصف الأول من هذا القرن كانت كلمة (مفارقة)تطلق على الأدب الذي يجاور بين وجهات نظر مختلفة أو متعارضة لأسباب شتى ومن دون تعليق، وقد يكون الغرض من هذا الإجراء المتصف بالمفارقة أن يبلغ نظرة شاملة متوازنة، أو يعبر عن معنى أوسع وأغنى مما يمكن فعله في حالة التقرير المباشر لتجنب الإفراط في البساطة أو الإفراط في الجزم) ([٣])

ويقول أحد الباحثين: (المفارقة أسلوب أدبي يقوم على التضاد، يبرز فيه المعنى الخفي في تضاد ملموس مع المعنى الظاهري معتمدا على المفارقة اللفظية أو مفارقة الموقف أو السياق، وهو أمر يحتاج إلى مجهود لغوي، وكدّ ذهني ، وتأمل عميق للوصول إلى التعارض وكشف دلالاته بين المعنى الظاهر والمعنى الخفيّ الذي يتضمنه النص وفضاءاته البعيدة) ([٤]) ويعرف محمد جديتاوي المفارقة بقوله: (المفارقة أسلوب تعبيري يهدف

---

(١) المفارقة القرآنية دار الفكر العربي ١٩٩٤، ١٤

(٢) المفارقة وصفاتها تأليف د سي ميوك ترجمة الدكتور عبدالواحد لؤلؤة موسوعة المصطلح النقدي المجلد الرابع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط الأولى ١٩٩٣،٣٨

(٣) السابق ٣٨

(٤) المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم د نعمان عبد السميع دار العلم والإيمان ٢٠١٤

المفارقة في شعر أبي العلاء المعري هيثم محمد جديتاوي إربد الأردن ٢٠١٢

إلى إيصال المعنى بطريقة إيحائية وشفافة تجعل القارئ يرفض النص بمعناه المباشر ويستنبطه لاستخراج معان متعددة دون أن يمتلك القدرة على ترجيح أحدهما على غيره مع ما يمكن أن يتصف به من تنافر أو تباين أو غموض ، ومع ما تثيره من مشاعر السخرية عند منشئها ومتلقيها على حد سواء)

ويتصل بما سبق وصف عبد القاهر الجرجاني الكلام الفصيح بأنه يعتمد على الإيماء والكناية والتعريض والإشارة والتضاد حيث يقول: (فإنك إذا قرأت ما قاله العلماء فيه وجدت جلّه أو كلّه رمزا ووحيا وكناية وتعريضا وإيماء إلى الغرض من وجه لا يفطن له إلا من غلغل الفكر وأدق النظر، ومن يرجع من طبعه إلى ألمعية يقوى معها على الغامض، ويصل بها إلى الخفي حتى كأن بشلا حراما أن تتجلى معانيهم سافرة الأوجه لا نقاب لها، وبادية الصفحة لا حجاب دونها، وحتى كأن الإفصاح بها حرام، وذكرها على سبيل الكناية والتعريض سائغ)([1])

ويتضح مما سبق أن تعريف المفارقة يتنوع تبعا لتنوع أنماطها بين المفارقة التصويرية التي تبرز التناقض بين طرفين متضادين دون حكم أو تعليق، والمفارقة اللفظية التي هي نوع من التضاد بين المعنى المباشر والمعنى غير المباشر لتحقيق غايات فنية، ومفارقة الشخصيات التي ترتكز حول النماذج البشرية المتناقضة، وأيا ما كان من تعريف المفارقة فإن القارئ المتيقظ يعد شريكا أساسيا في صنعها وإدراك مراميها واستكناه أسرارها، فليست المفارقة مجرد تسجيل للوقائع والأحداث وإنما تتطلب الوعي بالتناقض الذي يكتنف الوجود الإنساني والحياة بأسرها.

---

(١) دلائل الإعجاز ت محمود شاكر م الخانجي ٢٠٠٩، ٤٥٥

المفارقة في التراث العربي:

لا يكاد يخلو عصر من العصور أو أدب من الآداب من التعبير بالمفارقة، بل لقد بدأ وعي الإنسان بالمفارقة منذ بدء الخلق، مما يؤكد معرفة العرب بهذا اللون من ألوان التعبير وأنها ليست قصرا على النقاد الغربيين وإن اتخذت مسميات أخرى تحمل المعنى الذي يحمله مصطلح المفارقة مثل الكناية والتهكم والسخرية والذم بما يشبه المدح والتورية ....إلخ ، ونستطيع أن نظفر بكثير من نماذجها في تراثنا العربي شعر ونثرا، ولا أبالغ إذا قلت بحضور المفارقة في القرآن الكريم،

ففي سورة الحاقة –مثلا– مقارنة بين مشهدين من أجلّ المشاهد التي تملأ نفوس المؤمنين غبطة وسرورا وتصور مشهد التكريم والمفاخرة والمباهاة كما تزلزل كيان الكفار وتصم المعاندين بالذلة والهوان، وتبتدئ المشاهد بتطاير الصحف حيث يؤتى كل امرئ كتاب أعماله وهنا يباهي المؤمن أهل الموقف ببشائر النجاح وأمارات الظفر ألا وهي تلقّي الكتاب باليمين فتراه مسرورا مغتبطا مباهيا نظراءه وشانئيه في وقت معا ، (فأما من أوتي كتابه بيمينه فيقول هاؤم اقرؤا كتابيه . إني ظننت أني ملاق حسابيه. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ)

وفي الآيات دليل على أن النعيم الأخروي إنما يبتدئ باليقين الدنيوي في لقاء الله وصدق العرض عليه وجلال الوقوف بين يديه وسرعان ما تتحقق البشائر وتتوالى النعم الحسّية والمعنوية، وليس أدل على ذلك من تلك المعيشة الهانئة الراضية حيث المقام في أعلي الفراديس والتلذذ بأطايب الطعام وصنوف الشراب ،ثم تنقلنا الآيات صوب المشهد المقابل كي تكتمل الصورة وتتحقق المقارنة (وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي

مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ. خُذُوهُ فَغُلُّوهُ . ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ . إِنَّهُ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ . وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ فليس لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ . لَا يَأْكُلُهُ إِلَّا الْخَاطِئُونَ)

وهنا تتصاعد الحسرات والآلام متضافرة مع حروف المد المتتالية وأصوات النداء المتعالية في فضاء جهنم فضلا عما يصاحبها من الصراخ والعويل المتصاعدين من تلك الحناجر البغيضة تمهيدا لما أعدّ لأصحابها من العذاب والتنكيل، وهنا يطول العرض لما يراد به من إطالة الشعور بالحسرة والندامة حتى يتمنى ذلك البائس الشقي أنه لم يأت هذا الموقف ولم يؤت كتابه ولم يدر شيئا عن حسابه كما يتمنى أن لو كانت هذه القارعة هي القاضية، التي تنهي وجوده أصلا، ثم يتحسر على ما كان يعتز به أو يجمعه: (ما أَغْنى عَنِّي مالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطانِيَهْ) فلا المال أغنى ولا السلطان نفع ولا شيء يحول بينه وبين السلاسل المتطاولة التي تصفد فيها أطرافه ولو أنها سلسلة واحدة لكفى لكن إيحاء التطويل والتهويل ينضح من وراء لفظ السبعين ومدّها وطولها ووقعها،

وينتهي المشهد العنيف الذي جاء في هذه الصورة المفزعة لتقرع آذان الجبابرة في كل زمان وتجبههم بما يزلزل كيانهم ويناسب ما كانوا عليه من الطغيان والجبروت، إنها الحقائق الأخروية والثوابت الغيبية يصورها القرآن الكريم بأيسر العبارات وأبهى الصور وأرقى الأساليب وفي طليعتها أسلوب المفارقة الذي هو أجدر الأساليب وأقدرها على تلبية حاجات الدعاة والمصلحين والوفاء بما أنيط بهم من الترغيب والترهيب([1])

(١) ينظر: المفارقة التصويرية في القرآن الكريم دراسة للباحث منشورة بمجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود العدد الثاني والثلاثون المجلد الخامس٢٠١٩ /٤٤٨٠ وما بعدها

ونستطيع أن نظفر بكثير من نماذج المفارقة في أدب الجاحظ الذي يعد (صانع المفارقة الأول في التراث العربي حيث رصد فنه الساخر ظواهر اجتماعية سلبية –والسخرية قريبة من المفارقة– وتمهد الطريق للقارئ حتى يزيح الغطاء عن الظاهر فيرى ما يستقر تحته من متعارضات ومتناقضات على المستوى الواقعي الكوني) ([1])

ومن أظهر نماذج المفارقة في أدب الجاحظ قصة القاضي والذباب التي تسلط الضوء على عبدالله بن سوار قاضي البصرة بما يتصف به من الرزانة والوقار لكنه لا يلبث أن يقع فريسة لذبابة مزعجة تخرجه عن وقاره ورزانته ، ومما جاء فيها:

(فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفى السّماطين بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ثم تحول إلى مؤق عينيه فرام الصبر في سقوطه على المؤّق وعلى عضه ونفاذ خرطومه كما رام من الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضّن وجهه أو يذب بإصبعه، فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض فدعاه ذلك إلى أن والى بين الإطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى، فحرّك أجفانه وزاد في شدة الحركة وفي فتح العين وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ثم عاد إلى موضعه، فما زال يلحّ عليه إلى أن فرغ صبره وبلغ مجهوده ،فلم يجد بدّا من أن يذب عن عينيه بيده ففعل وعيون القوم إليه ترمقه.....)([2])

---

(١)المفارقة، نبيلة إبراهيم فصول المجلد السابع العددان الثالث والرابع أبريل سبتمبر ١٩٨٧ص١٣١

(٢) الحيوان ت عبد السلام هارون ط٢مكتبة الحلبي ٣/٣٤٤

(فالجاحظ في هذا النص ليس متحيزا لموقف أو لقيمة أو لشخص، بل هو مراقب للظاهر ومسجل له بدقة على نحو ما يدور حوله ، ولكنه إذ يفعل هذا يمهد الطريق للقارئ لكي يزيح معه الغطاء عن الظاهر فيرى ما يستقرّ تحته من متعارضات ومتناقضات على المستوى الواقعي والكوني، فضحية الجاحظ شخصية متدينة وقد بلغ بها تديّنها حدّ الجمود بحيث أصبحت جزءا من المعالم الدينية الثابتة (الجامع والعمود ومواقيت الصلاة) هنا نجد أن هذه الشخصية في سلوكها الظاهري مؤكدة للقيمة الدينية وليست نافية لها، ولكن الحياة حركة تدبّ خارج الثوابت، خارج المسجد والعمود والرجل، ولكي يحدث تواصل بين الداخل والخارج، كان لابد أن يخرج شيء من الداخل إلى الخارج ، أو يدخل شيء من الخارج إلى الداخل، وكانت الذبابة هي التي دخلت من الخارج إلى المسجد، والذبابة حشرة لحوح مزعجة وهي تلحّ على الإنسان بقدر ما تلحّ على الأشياء التي تقع عليها ، وهي بعد هذا تتمتع بحرية الحركة التي تمكنها من الهروب في كل مرة تحقق فيها رغبتها في المضايقة، وهي بهذا تقف على طرف النقيض من الرجل، فهي تأتي متحركة من الخارج، وهو قابع ساكن في الداخل، وهي حرّة في حركتها ولا يقرّ لها قرار وهو جامد مقيد في مكانه، حتى حانت الفرصة التي لم يستطع فيها الرجل الاستمرار في التحدي عندما وقفت الذبابة على مؤق عينه وعندئذ رفع يده للمرة الأولى لكي يطردها عنه، وبهذا استطاع الجاحظ أن يطلق ضحكاته التي لم تسمع معلنا عجز الإنسان الشديد بين القيد والحرية، وهو يهدف إلى التعبير بالمفارقة على المستوى الحسي والكوني، وأن يسخر من شخصية بعينها ويكشف متناقضات الحياة التي لا يستطيع أن يصل فيها الإنسان إلى حقيقة واحدة

واضحة وحاسمة، وهنا تأتي المفارقة لتقرع الحقائق بعضها ببعض دون أن تتمكن إحداها من أن تزيح الأخرى لتتربع وحدها على عرش الظاهر والباطن معا)([1])

فهذا السرد المتأني والتحليل البارع يظهرنا على قدرة أسلوب المفارقة على التعبير عن النوازع النفسية وما يختلج في أغوار البشر من رغبات وأحاسيس بالرغم من محاولاتهم إخفاءها وتجاهلها، وتؤكد الضعف البشري الذي هو من طبائع الإنسان مهما بلغ من الرزانة والوقار.

كما عرف الشعر العربي المفارقة واستعملها الشعراء في العصور المتعاقبة استعمالا يؤكد وعيهم بتلك الطرائق التعبيرية خلافا لمن يزعم استئثار الغربيين بها، ومن النماذج التي تتجلى فيها المفارقة تلك القصيدة الذائعة لأبي البقاء الرندي التي مطلعها :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يغرّ بطيب العيش إنسان

وفيها يسلط الأضواء على حقبتين من حقب التاريخ الإسلامي في الأندلس مبتدئا بما شاده بناة الحضارة هنالك من مفاخر وأمجاد حيث يقول :

أين الملوك ذَوو التيجان من يمنٍ وأين منهم أكاليلٌ وتيجانُ ؟
وأين ما شاده شدَّادُ في إرمٍ وأين ما ساسه في الفرس ساسانُ
وأين ما حازه قارون من ذهب وأين عادٌ وشدادٌ وقحطانُ ؟[2]

والقصيدة تمثل إحدى العلامات البارزة في الشعر العربي لطرافة موضوعها وعمق أثرها في النفس العربية، ولا غرابة فإن الحضارة الإسلامية في بلاد الأندلس كانت محط الأنظار وقبلة العلماء وملتقى الأدباء ومعقل الملوك والأمراء، ولا غرابة فلقد انصهر في

---

(١) المفارقة نبيلة إبراهيم١٣٧

٢ رثاء الأندلس لأبي البقاء الرندي، جمع عيسى بن محمد الشامي كنوز الأندلس ٣٥

بوتقتها العرب والفرس وأعلى صروحها الشرق والغرب، وأقبل على مائدتها العامرة شداة الأدب والشعر، وسرعان ما أتت الرياح بما لا تشتهي السفن فأمست الديار خرابا والحضارة بلقعا والأنس وحشة ودمارا، يقول الرندي مصورا المأساة التي حلت بالديار وما آلت إليه من فجائع ونكبات :

فجائعُ الدهر أنواعٌ مُنوَّعة وللزمان مسرّاتٌ وأحزانُ
وللحوادث سُلوان يسهّلها وما لما حلّ بالإسلام سُلوانُ
دهى الجزيرة أمرٌ لاعزاءَ له هوى له أُحدٌ وانهد ّ ثهلانُ
أصابها العينُ في الإسلام فامتحنتْ حتى خَلت منه أقطارٌ وبُلدانُ
فاسأل (بلنسيةً) ما شأنُ (مُرسيةً) وأينَ (شاطبةٌ) أمْ أينَ (جَيَّانُ)
وأين (قُرطبة)ٌ دارُ العلوم فكم من عالمٍ قد سما فيها له شانُ
وأين (حْمص)ُ وما تحويه من نزهٍ ونهرهُا العَذبُ فياضٌ وملآنُ
قواعدٌ كنَّ أركانَ البلاد فما عسى البقاءُ إذا لم تبقَ أركانُ
تبكي الحنيفيةَ البيضاءُ من أسفٍ كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ
على ديار من الإسلام خالية قد أقفرت ولها بالكفر عُمرانُ
حيث المساجد قد صارت كنائسَ ما فيهنَّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ

بهذا التجاور الحاد بين العمران والخراب استطاع الرندي أن يلهب العواطف ويسعر القلوب والمشاعر حزنا على ما آل إليه حال هذا الإرث الحضاري العتيد ، وتلك الصروح الدامية ، وهذا ما نجح أسلوب المفارقة في التعبير عنه وتصويره بأفضل ما يكون التعبير والتصوير.

أنماط المفارقة :

إذا كان الإلمام بمفهوم المفارقة أمرا عسيرا فإن الإحاطة بأنماطها وطرائقها أشد عسرا ، نظرا لما تتجلى فيه من صور عديدة وسياقات مختلفة فضلا عن التنوع بين المفارقة اللغوية أو اللفظية والمفارقة التصويرية ومفارقة الشخصيات، وفيما يلي عرض لأبرز الطرائق وأظهر الأنماط وأكثرها تناسبا مع مقام النبوة وبلاغة الرسول ﷺ:

(أ)المفارقة التصويرية :

وتعد من أظهر ألوان المفارقة وأقربها إلى الحقول الأدبية، ويقصد بها: (إبراز التناقض بين طرفين متقابلين)([1]) حيث تساق العبارات على نحو من التفصيل والتجاور بين المشهدين المتناقضين (ومن خلال مقابلة الطرف الثاني بكل ملامحه بالطرف الأول بكل ملامحه أيضا تبرز فداحة المفارقة ويتجاوز إيحاؤها في كل من الطرفين مدى لا يصل إليه تصوير كل طرف منفردا ، لأن كلا من الطرفين يلقي بظلاله على الآخر فتبرز ملامحه ويزيد وضوحا وجلاء) ([2])

أضف إلى ذلك أن عرض الصورتين في سياق من التجاور دون حكم يمهد السبيل أمام القارئ المتيقظ للاختيار الواعي والفهم الدقيق والاستيعاب التام والاهتداء المتبصر، ولئن أردنا نموذجا للمفارقة التصويرية فلنتأمل قصيدة (أحزان أندلسية) لنزار قباني الذي اتخذ من أسلوب المفارقة سبيلا إلى البث والإفضاء، يقول الدكتور علي عشري زايد: (يبني الشاعر قصيدته أحزان في الأندلس على مفارقة تصويرية كبيرة طرفها الأول ماضي العرب في الأندلس وما كانوا عليه من قوة وبأس وسلطان ومجد، وطرفها الثاني

---

(١)عن بناء القصيدة العربية الحديثة د. علي عشري زايد م الشباب ١٤٧

(٢)عن بناء القصيدة العربية الحديثة ١٥٣

ما آل إليه هذا المجد من انطفاء وخمول، والشاعر يصرح بكلا الطرفين لا يخلطه بالآخر ولا يسقط عليه أيا من ملامحه وسماته، يقول عن الطرف الأول مصورا عزة الماضي العربي:

كتبتِ لي يا غالية
كتبت تسألين عن إسبانية
عن طارقٍ يفتح باسم الله دنيا ثانية
عن عقبة بن نافع .. يزرع شتل نخل في قلب كل رابية
سألت عن أمية .. سألت عن أميرها معاوية
عن السرايا الزاهية
تحمل من دمشق في ركابها حضارة وعافية

ثم ينتقل إلى تصوير ملامح الطرف الثاني المتمثل فيما آل إليه هذا المجد من انطفاء وذبول:

لم يبق في إسبانية
منا ومن عصورنا الثمانية
غير الذي يبقى من الخمر بجوف الآنية
لم يبق من قرطبة سوى دموع المئذنات الباكية
سوى عبير الورد والنارنج والأضالية
لم يبق من ولاّدة ومن حكايا حبها قافية ولا بقايا قافية
لم يبق من غرناطة ومن بني الأحمر إلا ما يقول الراوية

فالشاعر يصور كلا من الطرفين مستقلا عن الآخر، الطرف الأول بما يحمله من عبير المجد والعزة والخلود، والثاني بكل ما آل إليه هذا المجد من اضمحلال وخمود ، ومن

خلال وضع كل من الطرفين إزاء الآخر يبدأ التفاعل بينهما وتبرز المفارقة)([1]) ولا شك أن أسلوب المفارقة هو أفضل الأساليب الأدبية التي تعبر عن تلك الأحوال المتناقضة فضلا عما يوحي به من التفاعل الإيجابي بين المبدع والمتلقي .

(ب) المفارقة اللفظية :

(وهي نمط كلامي، أو طريقة من طرائق التعبير يكون المعنى المقصود فيها مناقضا أو مخالفا للمعنى الظاهر، وتنشأ من كون الدال يؤدي مدلولين نقيضين: الأول مدلول ظاهر، والثاني مدلول سياقي خفي)([2])

فالمفارقة بهذا المعنى نمط لغوي وصورة من صور الاتصال بين الكاتب والقارئ ويرتبط هذا النمط بعدد من أشكال التعبير اللغوي مثل: الكناية والتعريض والتورية والتهكم والسخرية والمشترك اللفظي .... إلخ

ولئن أردنا نموذجا للمفارقة اللفظية فلنتأمل قول الله عز وجل (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) (فالبشارة في لغة العرب دائما للخير والمادة كلها تدور حول ما يبعث على السرور، وحين يسمع العربي لفظ البشارة فإنه يفهم منها بداهة أن الله سبحانه يكلف رسوله أن يحمل إلى أعداء الله بشرى تدخل إلى نفوسهم السرور وتملأ قلوبهم بالبهجة ، ولكنه يفاجأ بأن هذه البشرى التي يحملها إليهم الرسول إنما هي عذاب، بل عذاب أليم ، وهنا يحدث التناقض الذي يثير في النفس الطرافة والعجب، كما أن أعداء الله حين يسمعون أن هناك رسولا يحمل إليهم بشرى فإن نفوسهم لأول وهلة تمتلئ بالرضا والتطلع إلى الخير والسرور المنتظر

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة ١٤٠

(٢) المفارقة وصفاتها ٢١٣

لكنهم يفاجأون بأن البشرى التي تزف إليهم إنما هي عذاب أليم ، ومهما يكن الزمن بين الأمرين وجيزا ستحدث في نفوسهم صدمة أو نوع من الإحباط ، والأهم من ذلك هو تعذيبهم نفسيا بهذه السخرية منهم ومن حالهم لما تتضمنه من إهانة واستخفاف)[1] ولا يخفى على القارئ المتيقظ ما تحمله تلك اللفظة القرآنية من دلالة على التنفير من هذه المسالك البغيضة التي يسلكها مانعو الزكاة فضلا عما تدل عليه البشارة بالعذاب من التهكم والسخرية من أولئك المتعاظمين وأضرابهم في كل زمان ومكان جزاء وفاقا على استهزائهم بالفقراء وسخريتهم من المؤمنين .

(ج) مفارقة الشخصيات،

وأقصد بها الاستعانة بالنماذج البشرية المتناقضة للتعبير عن الفكرة وتقريبها إلى الأذهان، وتعد الشخصيات بمواقفها ومصائرها محورا أساسيا لهذا اللون من ألوان المفارقة، وفي القرآن الكريم وكلام العرب الفصيح نماذج عديدة، وهي تهدف إلى عرض ألوان متباينة من الشخصيات التي تتجلى فيها قيم الحق والخير والطاعة والهداية وأخرى تجسد ألوان الباطل والشر والغواية والضلال .

ومن نماذجها في القرآن الكريم قصة صاحب الجنتين يقول الله عزو جل في سورة الكهف: (واضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنا لِأَحَدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنابٍ وَحَفَفْناهُما بِنَخْلٍ وَجَعَلْنا بَيْنَهُما زَرْعاً (٣٢) كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَها وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئاً وَفَجَّرْنا خِلالَهُما نَهَراً (٣٣) وَكانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقالَ لِصاحِبِهِ وَهُوَ يُحاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مالاً وَأَعَزُّ نَفَراً (٣٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظالِمٌ لِنَفْسِهِ قالَ ما أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هذِهِ أَبَداً (٣٥) وَما أَظُنُّ السَّاعَةَ قائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْها مُنْقَلَباً (٣٦) قالَ لَهُ صاحِبُهُ وَهُوَ يُحاوِرُهُ

---

١ التصوير الساخر في القرآن الكريم د.عبد الحليم حفني الهيئة العامة للكتاب ١٩٩٢،٢٤٤

أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً (٣٧) لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا (٣٨) وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا (٤٠) أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا (٤١) وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا (٤٣) هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا(٤٤)

فهذا المثل يظهرنا على القيمة الأسلوبية والتعبيرية للمفارقة وأثرها في تجلية الأمور الدينية والمسائل العقدية، حيث تتسلط الأضواء القرآنية على نوعين من الشخصيات والنماذج البشرية، أما الأول فهو نموذج للمؤمن الذي تنساق إليه النعم الإلهية فيتلقاها حامدا شاكرا مستحضرا فضل الله فيها واقتداره سبحانه على سلبها، وإذا قدر عليه الرزق وابتلي بالفقر والحاجة فإن شعاره هو الرضا والصبر وترقب الثواب الأخروي والنعيم الأبدي فهو بين حالين: الحمد لدى العطاء والصبر عند الابتلاء، أما النموذج السلبي فيتجسد فيه البطر في أبغض صوره والكبر في أقبح معانيه، وهذا صنف من البشر إن أعطي لم يشكر وإن حرم لم يصبر، فهو بين حالين من البطر في الأولى والجزع في الثانية، وتأتي مفارقة الشخصيات كي تترجم ملامح الموقف متجسدة في شخصيتين تتسمان بعدد من الخصائص الواضحة للعيان الماثلة في الأذهان، فأحدهما قد امتن الله عليه بألوان النعم وصنوف الخير حيث الجنات والنخيل والزروع والثمار والمال والولد لكنه برغم ذلك سلب نعمة الإيمان الذي يزع أصحابه على الشكر ويدفعهم دفعا إلى إسناد النعم إلى المنعم جل في علاه ، وأشد من ذلك أن تراه سادرا في غيه ممعنا في

التنكر لخالقه ومكذبا بالبعث الذي وقر في القلوب وتكاثرت عليه الأدلة، وسرعان ما يهلك الثمر وتفنى الحدائق ويتلاشى الزرع ويكون الندم والخسران.

وأما النموذج الإيجابي للإنسان المؤمن فتتجلى في أوصافه ملامح الرضا والقناعة والإذعان فضلا عن التوحيد الخالص والتسليم المطلق بما تفد به الأقدار، فتراه منكرا لهذا المسلك الكنود وذلك الكفران البغيض برغم الامتنان الإلهي بالخلق وما تلاه من سائر النعم وصنوف التكريم، وأهم من ذلك أن توحيد الله والتسليم بإرادته أحب إليه من تلك الزخارف الدنيوية والبريق الخادع ومن ثم تضيء أنوار الإيمان في قلبه لتسطع في سماء الآخرين هداية وإرشادا بأن يستحضر المرء فضل الله عند كل نعمة مرددا هذا الشعار الخالد (ما شاء الله لا قوة إلا بالله) متخذا من الاعتصام بالله وقاية من الدمار الذي حاق بصاحبه فأحال نعيمه بؤسا وغناه فقرا وبطره ندما وجناته ترابا ودمارا ،

وهنا يمكن القول إن القرآن الكريم وضع نصب الأعين هذين النموذجين ليكونا ماثلين في وعي العقلاء في كل العصور، جامعا بين الموقف والمصير أي الطريق الذي اختار كلاهما السير فيه والمصير الذي ينتهيان إليه، وحسبك بهذا المصير ثوابا للطائعين وعقابا للعصاة وهذا ما يزيدنا إعجابا بأسلوب المفارقة وتعلقا بمصائر الأخيار ونفورا من مسالك الأشرار.

المبحث الأول: المفارقة التصويرية

ويقصد بها: (إبراز التناقض بين طرفين متقابلين)(١) وبتعبير ميوك: (تجاور من دون تعليق بين قولين متناقضين أو صورتين متنافرتين)(٢) والمفارقة التصويرية أعم وأشمل من الطباق والمقابلة سواء من ناحية بنائها أم من ناحية وظيفتها، وإذا كانت الأشياء تتمايز بأضدادها فإن التمايز في المفارقة يكون أوضح والاستدلال بها على البلاغة النبوية يكون أبلغ (فمن خلال مقابلة الوجه الثاني بكل ملامحه بالوجه الأول بكل ملامحه أيضا تبرز فداحة المفارقة ويتجاوز إيحاؤها في كل من الطرفين مدى لا يصل إليه تصوير كل طرف منفردا، لأن كلا من الطرفين يلقي بظلاله على الآخر فتبرز ملامحه ويزيدها وضوحا وجلاء) (٣)

ومن نماذجها في الحديث النبوي قوله ﷺ فما رواه أبو موسى الأشعري: (مَثَلُ المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأُتْرُجَّة؛ ريحُها طيِّب وطعمُها طيِّب، ومَثَل المؤمن الذي لا يقرأ القرآنَ مثَل التمرة؛ لا ريحَ لها وطعمُها حُلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن مثل الرَّيحانة؛ ريحُها طيِّب وطعمُها مُرٌّ، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة؛ ليس لها ريحٌ وطعمُها مُرٌّ) (٤)

والحديث يصور صنوف البشر بحسب درجاتهم الإيمانية وبالنظر إلى علاقتهم بالقرآن الكريم والانتفاع بهديه والاقتباس من أنواره والنهل من معينه الذي لا ينضب ما دامت

---

(١) عن بناء القصيدة العربية الحديثة ١٤٤

(٢) المفارقة وصفاتها ٨٧

(٣) عن بناء القصيدة العربية الحديثة ١٤٤

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، ٧٧/٧، حديث رقم ٥٤٢٧

الحياة، ويأتي المؤمن القارئ للقرآن في طليعة المشهد النوراني ومقدمة النماذج البشرية التي تنشد الوصول وتؤمل النجح ويرجى لها الفلاح دنيا وأخرى، ولقد جمع له البيان النبوي حشدا من الأوصاف المحببة والخصال الحميدة سواء في ذلك ما يتصل باللون المعطر والريح الطيب والطعم اللذيذ، وهذا دأب المؤمن المقبل على مائدة القرآن تلاوة وتدبرا وعملا حيث تعلوه المهابة والوقار وتزينه أنوار الإيمان وبهاء الطاعة، وبالجملة تجتمع له خصال الخير ظاهرا وباطنا، وليس أدل على الترغيب في سلوك درب الإيمان والإقبال على القرآن من هذا التعبير النبوي الراقي والوصف المحمدي الأخاذ،

ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن مثَل التمرة؛ لا ريحَ لها وطعمُها حُلو، فهو – وإن ترك القراءة عن غفلة أو جهل – فإنه لا يعدم وصف الإيمان وسيمياء المتقين وتلك من أمارات الرحمة الإلهية، فما دام المرء متلبسا بالإيمان فإنه سيكون حاديا إلى السير نحو مائدة القرآن ليجمع– حين تستنير بصيرته – بين حلاوة الطعم وجمال الرائحة ،

أما المنافق المفتون المخادع للخالق والمخلوقين فإنه يمعن في نفاقه وتزويره بقراءة القرآن لكنها قراءة لا تغني عنه شيئا ولا توجد له مكانا بين صفوف المؤمنين، وليس أدل على ذلك من أنك حين تبلوه فإنك تراه لئيم المخبر نتن الرائحة قبيح المنظر خبيث الطوية، فاستحق هذا الوصف النبوي الذي يعد من أشد الأوصاف وأبلغها في التنفير من النفاق وذم مسالك المنافقين،

ولقد آتت المفارقة ثمارها في التصنيف النبوي لطوائف البشر سواء من حيث ارتقاؤهم في مدارج السمو والكمال أو ارتكاسهم في دركات النفاق ومهاوي العصيان، وبيان ذلك أن التصوير النبوي للصنوف المذكورة يناط به عرض الطبقات البشرية أمام أعين العقلاء وأفهام المتأملين تمهيدا للاختيار المتبصر والاهتداء المتزن والسير إلى مرضاة الخالق دون إكراه، وهذا ما يدفع إلى القول بأن المفارقة التصويرية ليست مجرد وسيلة

تعبيرية أو نمط تصويري فحسب وإنما هي مسلك تربوي ومنهج نبوي تتجلى فيه سماحة الدين وروح الإسلام وبلاغة الرسول وهدي النبوة.

وعن أبي موسى الأشعري قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا؛ فَقَالَ: رَأَيْتُ بِعَيْنَيَّ ، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ، فَالنَّجَاء النَّجَاءَ، فَأَطَاعَتْهُ طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمْ الْجَيْشُ فَاجْتَاحَهُمْ)(١)

وفي الحديث مفارقة تصويرية بين فريقين: فريق أطاع الله وامتثل أمره واستجاب للرسول ولبى النداء فنجا وفاز، وفريق أبى واستكبر وكذّب وعاند فخاب وخسر، والحديث يلقي الضوء على رسالات الرسل وجهود الأنبياء في تبليغ الرسالات وما يكتنفه من مشاق، وكأني بالرسول ينذر قومه داعيا إياهم إلى الخير محذرا من الشر مما يعكس حرصه على قومه وحدبه على أمّته وطمعه في نجاتها وإشفاقه عليها مما أعد للعصاة من العذاب والنكال حتى كأنه رأي عين، بيد أن البشر يتفاوتون في استجابتهم لنداء الحق ودعاة الخير فمنهم من يبادر فينجو ويفوز، ومنهم من يماري ويجادل فيخسر ويهلك،

وفي الوصف النبوي لهذا النذير تتجلى ملامح النبوة وعظمة الرسول ﷺ، فهو برغم قدسية رسالته لا يعدو كونه (رجلا) مع التأكيد بأنه رأى بعينه ووصفه للنذير بكونه عريانا وهو وصف قد بلغ الغاية في التجرد وينفي عن الرسل والأنبياء مظاهر الكبر والاستعلاء ويؤكد ما يتصفون به من الحدب والإشفاق والرأفة والرحمة،

(وهاهو ذا نبينا ﷺ يهتف بالجملة التي اعتادوها عند وقوع الأمر الجلل (فالنّجاء النّجاء)، ولقد آثر النبي هذا المسلك التعبيري للحث على النجاة والتحذير من الهلاك،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ١٠١/٨، حديث رقم ٦٤٨٢.

وهي صورة محسوسة يدركها من ذاق ويلات الحروب ويحسن تلقيها ذوو الألباب والبصائر في كل زمان ومكان، والحديث يعيد إلى الأذهان صورة ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره قد جدع أنفه وحوّل رحله وشق قميصه وهو يقول : يا معشر قريش: اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه فالغوث الغوث)([1])

(ولنتأمل منطقه ﷺ وهو يتحدث إلى قومه وهنا يستخدم الحوار جنبًا إلى جنب مع السرد بل جاء جزءا منه ومتممًا له، فالحوار على لسان النذير العريان مع قومه جسّد لنا الحدث وتطوره إذ جعله حاضرًا مشخصًا فالحوار في القصة النبوية يعمل على تدعيم البنية القصصية، وإعطاء السرد نوعًا من الحيوية والإثارة فضلًا عن كونه أداة الشخصيات في التعبير عن أفكارها وآرائها)([2])

ويتجلى أثر المفارقة في تسليط الضوء على مسالك الطائفتين: (فالطائفة الأولى صّدقت فور إنذارها وهذا ما تدل عليه (الفاء) في(فأطاعته) ،(فأدلجوا) أي ساروا أول الليل فور إنذارهم حتى لا يدهمهم العدو، والفاء تشير إلى ذلك وتربط السلوك ربطا محكمًا مباشرًا بالاعتقاد وأنهم ما إن أطاعوه إلا أدلجوا، فالطائفة الأولى صدقت فور إنذارها فأدلجوا صورة سريعة تتلاحق أفعالها عاكسة سرعة القوم في طلب النجاء، فكان هربهم إدلاجا في جوف الليل، فشبه الرسول من أطاعه وتبعه واتبع ما جاء به واختار لنفسه أفضل طريق بحال من صدّق ذلك النذير الذي حذّره فنجا

---

(١) ينظر: البداية والنهاية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد دار المعرفة بيروت ٣٨٣/١٩٧٦٢

(٢)القصة التمثيلية في نماذج من الحديث النبوي الشريف قراءة أسلوبية ،أسماء الخطاب، مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الانسانية) المجلد٢٧ ،٢٠١٣م ص١٧١١

وسلم ماله وعرضه، ووجه الشبه بين الطرفين طاعة ترّتب عليها نجاة وفوز، أما الطائفة الثانية: فهي التي كذبت ورفضوا داعي التغيير وتشبثوا بما هم عليه، ووقفوا في مكانهم فصّبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم، ولا يخفى ما لغارة الصباح عند العرب من إثارة لمشاعر الفزع والهلع)([1])

وهكذا ألقت المفارقة النبوية في روع المتلقين على اختلاف طبائعهم وتباين درجاتهم الإيمانية أن الاستجابة للدعوة والانقياد لأمر الله هو طوق النجاة وطريق الفوز، وأن الكبر والعناد لا يؤديان إلا إلى الهلاك والخسران في الدنيا والآخرة.

وعن حذيفة قال: سمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: (تُعْرَضُ الفتن على القلوب؛ كالحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلبٍ أُشْرِبَها نُكِتَ فيه نكتةٌ سوداء، وأيُّ قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنةٌ ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مُرْبَادًّا؛ كالكوز مُجَخِّيًا لا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا إلا ما أُشْرِبَ من هواه)([2])

والحديث يعج بكثير من ألوان التصوير وفنون التعبير لعل أظهرها– بالإضافة إلى المفارقة – توظيف اللون (فلقد أدى التباين اللوني في هذا النص إلى تقديم لوحة رائعة ذات تضاد بين مشهدين)([3])

والحديث يتناول الأخطار التي تتهدد القلوب، والفتن التي تغري المرء بمخالفة الشرع والتغافل عن المنهج الإلهي في تنظيم الحياة البشرية، والعبارات تظهرنا على تسلل الفتن

---

(١)القصة التمثيلية في نماذج من الحديث النبوي الشريف ١٧١٥

(٢) أخرجه مسلم ١٤٤

(٣) الصورة الفنية في الحديث النبوي د. أحمد ياسوف دار المكتبي دمشق ط الثانية ٢٠٠٦، ٦١٤

إلى القلوب وتكاثرها الواحدة تلو الأخرى، وهنا يمكن تصنيف القلوب تجاه الفتن قسمين:

أما القسم الأول –ويمثل الطرف الأول في المفارقة– وهي قلوب المنافقين والضلاّل التي تشربت الفتن واستولى عليها الضعف والوهن فاستحقت تلك الوصمة المؤلمة والنكتة السوداء التي تتضاعف وتتسع رقعتها في القلب حتى يمسي وقد اكتنفه السواد واحتوشته الفتن حتى انتكس فلا يستجيب لخير ولا يتحرك لهداية ولا يصغي لموعظة، وبالجملة فقد ران عليه الباطل وتمكن منه النفاق والضلال والاستعلاء والإنكار، وحسبنا في الدلالة على ذلك تصويره في صورة الوعاء المقلوب والإناء المائل والكوز الفارغ، فضلا عن وصفه بالسواد ومعروف أن اللون الأسود إنما يرمز إلى الحزن والكآبة والألم والظلام،

أما القسم الثاني فهو قلب أبيض، والبياض ضد السواد وهو رمز الطهارة والصدق والنقاء، (وهو عند الشعراء الأكثر استخداما لأنه يقترن لديهم بالصفاء والإشراق ويبعث في نفوسهم الفأل والاستبشار بالطمأنينة، ولهذا كان اللون الأبيض أسخى الألوان إيحاء)([1])

والمؤمن حين يوصف قلبه باللون الأبيض فإن هذا إيذان بالنقاء والصفاء وعدم الاستجابة لدواعي الشر والعصيان (ولقد شبه في الحديث بياض القلب بالصفا أي من الطبيعة المخلوقة وهي الصخرة البيضاء الملساء وفيها دلالة على صلابته في الحق، ثم إنها لملاستها تنزلق فوقها الأشياء فتعلو هي على الأشياء، وهكذا تكون الفتن إذ لا تعلق بالمؤمن بل تهبط سريعا إلى ذويها في الحضيض والمستوى البهيمي لحيثياتها وفي

(١) الرمز والرمزية في الشعر المعاصر د. محمد فتوح أحمد دار المعارف ١٩٧٧، ٢٢١

هذا تكريم، في حين شبه سواد القلب بالكوز أي من الطبيعة المصنوعة، وفي هذا امتهان واضح من خلال هذا الحديث حيث تومئ الطبيعة المخلوقة إلى اكتساب الدنيا ، فالخير من الله والشر من الإنسان)([1])

ما أجملها من مقارنة وما أجمل ما تحمله في طياتها من إيحاءات، فالقلب الأبيض في حصن حصين من الأمان الإلهي والتثبيت الرّباني على الخير والطاعة ما دام حيّا نابضا، والقلب الأسود مغلق منكوس لا يصل إليه الخير ما بقي حيا ، وتلك لعمري أبلغ طرائق التحذير النبوي من الارتكاس في تلك الهوة السحيقة من الرذائل والانحرافات .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة بعد العصر إلى مغيربان الشمس حفظها من حفظها ونسيها من نسيها: ألا إن الدنيا حلوة خضرة وإن الله تعالى مستخلفكم فيها فينظر كيف تفعلون فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، ألا إن بني آدم خلقوا على طبقات شتى فمنهم: من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت مؤمنا ومنهم: من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت كافرا ومنهم: من يولد مؤمنا ويحيا مؤمنا ويموت كافرا ومنهم: من يولد كافرا ويحيا كافرا ويموت مؤمنا، ألا إن خير التجار من كان حسن القضاء حسن الطلب ألا وإن شر التجار من كان سيئ القضاء سيئ الطلب فإذا كان حسن القضاء سيئ الطلب أو سيئ القضاء حسن الطلب فإنها بها، ألا وإن شر الرجال من كان سريع الغضب بطيء الفيء فإذا كان سريع الغضب سريع الفيء فإنها بها ألا وإن خير الرجال من كان بطيء الغضب بطيء الفيء وإذا كان بطيء الغضب بطيء الفيء فإنها بها ألا وإن الغضب جمرة توقد في

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي ٦١٧

جوف ابن آدم ألم تر إلى حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه فإذا كان ذلك فالأرض الأرض .... الحديث([1])

وغني عن البيان أن المفارقة هي محور هذه الخطبة النبوية، وأن المقارنة بين صنوف الخلائق وطبائعهم هي الهدف الأسمى من هذا الحديث، وتبتدئ الخطبة ببيان حقيقة الدنيا وجوهرها والدور المنوط ببني آدم في عمارتها، واستتبع ذلك التصنيف النبوي لطبقات الآدميين سواء من حيث الإيمان والكفران أم من حيث ما يسود حيواتهم من التعاملات أو ما يكتنف طبائعهم وأخلاقهم في الغضب والحلم من شمائل وصفات، ويأتي التصنيف بحسب الإيمان والكفر في طليعة هذه الأقسام لأن العقيدة هي جوهر الوجود الإنساني وبها قوام الحياة البشرية، أما الطبقة الأولى— وحقت لها الصدارة —فهي طبقة المؤمنين الذين هيأت لهم الأقدار أسباب الإيمان منذ النشأة ومرورا بالسير في دروب الحياة على ضوء الإيمان ثم المضي إلى الآخرة في ثبات ورسوخ وثقة واطمئنان، وفي المقابل يأتي صنف بغيض يفد على الحياة كافرا ويمضي على إرث من الكفر ثم يموت عليه شر ميتة وأسوأ منقلب، وثمة صنف هو رمز للشر وعلامة على الشؤم لأنه جحد النعمة واختار الضلال وآثر الكفران، وأما الطبقة الرابعة فتظهرنا على الفضل الإلهي والهداية الربانية حيث تنبجس أنوار الإيمان في القلب بعد الكفر والضلال ،

ولتنظيم التعاملات وتوجيه المسلمين نحو التعامل الإسلامي الأمثل يشير النبي (صلى الله عليه وسلم) إلى أن خير التجار من كان حسن الطلب حسن القضاء فهو بأرفع المنازل وأعلى الدرجات لما يتطلبه ذلك من الصبر والمجاهدة والسعي إلى مرضاة الله في القضاء

---

(١)أخرجه احمد في مسنده، ٢٢٧/١٧، رقم ١١١٤٣

والطلب، والمفارقة هنا تأخذ بالألباب نحو هذا النموذج وفي الوقت ذاته تصرف العقلاء الأسوياء عن نقيضه وتلك لعمري غاية الإسلام وجوهر الرسالة المحمدية،

واستكمالا لوضع الضوابط الإسلامية والأسس التربوية للطبائع البشرية يقارن النبي(ﷺ) بين عدد من الصفات الخلقية التي تتعلق بالغضب والحلم وليس أدعى للنفور من سيء الأخلاق وسرعة الغضب من هذا التقسيم النبوي، ولقد كانت هذه القضية محورا لعدد كبير من الأحاديث الشريفة والتعاليم النبوية الخالدة، ولا غرابة فهي تتصل بجوهر الرسالة الأخلاقية التي بعث النبي لاستكمال بنيانها وإتمام مكارمها، وأسلوب المفارقة هنا يناط به وضع التفاوت في الأخلاق نصب الأعين ويمهد الطريق أمام الساعين إلى أعالي الدرجات، ويظهرنا في الوقت نفسه على مصائر الغافلين عن أثر الأخلاق في ميزان العدل الإلهي ،

وإمعانا في التحذير يبتدئ التصنيف النبوي بشرّ الرجال وهم أولئك الذين إذا دعاهم داعي الشر والعدوان سرعان ما يستسلمون لطبائعهم النزقة وأخلاقهم الشرسة وألسنتهم البذيئة، وفي الوقت ذاته ترى أحدهم بطيء الفيء مستعليا بطرا، ومن ثم عدّه النبي شرّ الرجال وأسوأ الطبائع،

وفي المقابل يمتدح الرسولﷺ تلك النماذج الإسلامية الباذخة التي تتجلى في أخلاقها تعاليم الإسلام وأخلاق النبوة من الحلم والصفح والتغافل عن الإساءات وإقالة العثرات، ولا شك أن الجمع بين هذين الصنفين في سياق واحد فيه لفت لأنظار المتلقين نحو التخيّر الراشد للخلق الأسمى والدرجة الأرفع والمنزلة الأعلى في الدنيا والآخرة .

وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله (ﷺ) قال: إنَّ المؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قاعِدٌ تَحْتَ جَبَلٍ يَخافُ أنْ يَقَعَ عليه، وإنَّ الفاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبابٍ مَرَّ علَى أنْفِهِ فقالَ به هَكَذا، قالَ أبو شِهابٍ: بيَدِهِ فَوْقَ أنْفِهِ ثُمَّ قالَ: لَلَّهُ أفْرَحُ بتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِن رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وبِهِ مَهْلَكَةٌ، ومعهُ راحِلَتُهُ، عليها طَعامُهُ وشَرابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنامَ نَوْمَةً، فاسْتَيْقَظَ وقدْ ذَهَبَتْ راحِلَتُهُ، حتَّى إذا اشْتَدَّ عليه الحَرُّ والعَطَشُ أوْ ما شاءَ اللَّهُ، قالَ: أرْجِعُ إلى مَكانِي، فَرَجَعَ فَنامَ نَوْمَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فإذا راحِلَتُهُ عِنْدَهُ. وفي روايةٍ : «فاللهُ أشدُّ فَرَحًا بتوبةِ العَبدِ المؤمنِ من هذا»، أي: مِن فَرَحِ هذا الرجلِ «بِرَاحِلَتِه وزادِه»، وفي روايةٍ أنَّه قال: «اللَّهُمَّ أنت عبدِي وأنا ربُّك، أَخْطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ، فاللهُ أشدُّ فرحًا بتوبةِ عبدِه من ذلك الرجل)([1])

وفي الحديث مقارنة تجسم حالي المؤمن والفاجر تجاه الذنوب والمعاصي، فبينما يراها المؤمن التقيّ أشبه بالجبال ضخامة وثقلا؛ ومن ثم نراه في كل أحواله خائفا وجلا دائم الاستغفار والتنصل والتوبة والندم فضلا عما يشعر به تجاه عظمة الخالق من الخضوع والتذلل، أما الفاجر فإنه لا يشعر بأنه ارتكب ذنبا أو اقترف إثما بالرغم مما اقترفته نفسه الآثمة من الذنوب والكبائر، ناهيك عما يستشعره من الكبر والبطر فاستحق أن يقترن بالذباب والحشرات، يقول الرافعي:

(ويكاد المرء الذي يسمع هذا الوصف يذكّره ذنوبه أن يحسّ بحركة جبل يهم أن ينقلع فيميل عليه ، وأما الفاجر فيسمعه يذكّره ذنوبه فإذا هي في خياله نقط سوداء تمرّ مرور الذباب ليس منه إلا الحسّ به ، كما يحسّ من يضرب على أنفه برجل ذبابة، وجعل الذباب يمرّ بأنفه دون عينيه أو فمه وذلك منتهى الجمال في التصوير لأن الذباب إذا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٦٧/٨، رقم ٦٣٠٨

وقع على الفم أو العين ثبت وألحّ فإذا وقع على قصبة الأنف لم يكد يقف ومرّ مروره)([1])

أما قوله ﷺ (لله أفرح .....) فلا يخلو من المفارقة بين حالي الرجل حين فقد متاعه وراحلته وأيقن بالبوار والهلاك وأمسى فريسة للحزن والألم، وبين حاله إذ وجد راحلته ومتاعه فرأيناه فرحا مسرورا بل لقد أخطأ من شدة الفرح، وهذه الفرحة الغامرة تشبه -ولله المثل الأعلى- فرح الخالق العظيم بتوبة المخلوق، ولا شك أن السرد المتأني والوصف الدقيق لحال الرجل عند الفقد يستمهل القارئ ويعطف القلوب صوب الرحمة الإلهية التي تتنزل على المخلوقين حين تضيق الدروب وتشتد الأزمات وتدلهم الخطوب.

وعن أَبي سعيدٍ الخُدريِّ عن النبيِّ ﷺ قَالَ : احْتَجَّتِ الجَنَّةُ والنَّارُ، فقالتِ النَّارُ: فِيَّ الجَبَّارُونَ والمتَكَبِّرُونَ، وقالَتِ الجنَّةُ: فِيَّ ضُعَفاءُ النَّاسِ ومَسَاكِينُهُمْ، فَقَضَى اللَّه بيْنَهُمَا: إِنَّكِ الجَنَّةُ رَحْمَتِي، أَرْحَمُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، وإِنَّكِ النَّارُ عذَابي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أَشَاءُ، ولِكِلَيْكُما عليَّ مِلْؤُها)([2])

والحديث النبوي تحتشد في ثناياه كثير من الظواهر الأدبية أظهرها ما يكتنف الأحداث من التشخيص والتجسيم وإضفاء الحياة على الجمادات كالجنة والنار فضلا عن المقارنة بين صنفين من صنوف البشر في الموقف والمصير: أما الصنف الأول فهم الجبّارون والمتكبرون الذين قلّ إذعانهم للخالق وتواضعهم للخلق فاستحقوا هذا المصير البائس والعذاب الأليم جزاء وفاقا وعدلا إلهيا وانتقاما ربانيا،

---

(١) وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي المكتبة العصرية ١٢١/٣

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٢١٨٦/٤، رقم ٢٨٤٦

وأما الصنف الثاني فهم ضعفة المسلمين في الدنيا وقد شاء الله لهم الرفعة والثواب في الآخرة تعويضا عما ذاقوه من المذلة والهوان في الدنيا، وتتسم المفارقة بعرض الفريقين المتحاجين في مشهدين متجاورين حيث يتبدى المتجبرون والمتكبرون في صورة من الهوان والذلة تنفر منها الأذواق بل إن النار لتجأر لخالقها طلبا للخلاص من قذرهم ونتنهم، بينما تظهرنا المفارقة على طوائف الفائزين وهم يرفلون في النعيم في أعالي الفراديس، أما احتجاج الجنة فيدل –فيما أرى– على مفاخرتها للنار وظفرها باستضافة الأتقياء وصحبة الأخيار.

وعن ابنِ مسعودٍ قال: كُنَّا مَعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ في قُبَّةٍ نَحوًا مِنْ أَرْبَعِينَ، فَقَالَ: أَتَرضَونَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَم، قَالَ: أَتَرْضَونَ أَن تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْنَا: نَعَم، قَالَ: وَالَّذِي نَفسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، إِنِّي لأَرجُو أَنْ تَكُونُوا نِصفَ أَهْلِ الجَنَّة، وَذَلِك أَنَّ الجَنَّةَ لا يَدْخُلُهَا إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، وَمَا أَنتُمْ في أَهْلِ الشِّركِ إِلَّا كَالشَّعرَةِ البَيضَاءِ في جلدِ الثَّورِ الأَسْودِ، أَوْ كَالشَّعَرَةِ السَّودَاءِ في جلدِ الثَّورِ الأَحْمَرِ"(١)

واستكمالا للإفادة من توظيف الألوان يصور النبي (ﷺ) أمته في هذه الصورة المحببة والأسلوب الشائق لدى العامة والخاصة للدلالة على ندرة العنصر الإيماني إذا قورن بأضداده من العقائد الفاسدة والنحل الباطلة، وهو تصوير وإن دل على قلة عدد المسلمين بالنسبة إلى الأمم الأخرى فإنه يدل على أنهم أشبه بالضياء في حياة البشر الذين يتخبطون في غياهب الباطل وحنادس الظلام، وكأن الكون قد استحال لونين لا ثالث لهما: لون أبيض ساطع يملأ الآفاق ويعم الأرجاء، ولون معتم مظلم تضاءل في زاوية كريهة وركن موحش، فبروز التضاد وظهور التعارض وهيمنة المقارنة بين جند الحق

(١) أخرجه البخاري في صحيحه٨/١١٠ حديث رقم ٦٥٢٨

وجحافل الباطل للدلالة على تضاد العقائد وتباين المصائر وتفاوت الدرجات وهذا ما نجحت المفارقة في إبرازه بشكل جليّ وصورة واضحة .

وكما قارن النبيﷺ بين النماذج البشرية والأحوال الإنسانية فإنه يقارن في الحديث التالي بين نوعين من البيوت، فيقول فيما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: (مثل البيت الذي يذكر الله فيه والبيت الذي لا يذكر الله فيه مثل الحي والميت)([1]) وليس أظهر في بيان الفرق بين هذين البيتين من أسلوب المفارقة، فالأمر لا يقتصر على الطباق بين الحي والميت، وإنما يتعداه إلى المقارنة النبوية بين بيتين أحدهما عامر بالذكر والقرآن والصلاة والاستغفار فتتنزل عليه الرحمة وتحل عليه السكينة وتغشاه الملائكة ويظفر صاحبه بذكر الله عز وجل ومعيته له وتوفيقه إياه، بل إن أضواء هذا البيت المبارك تتراءى لأهل السماء كما تتراءى النجوم السواطع لأهل الأرض، بينما البيت الخالي من الذكر تراه موحشا وإن كان مأهولا، مظلما وإن اجتمعت له الأضواء الحسية، وترى صاحبه ضيق الصدر وإن أحرز الثروات وارتقى أعلى المناصب وأرفع الدرجات، ولا شك أن المرء الذي ينبض قلبه بالحياة وينفق عمره في الطاعة وتسري في أوصاله دماء الحب لله والإقبال على عبادته فإنه يزداد في كل ساعة قربا ويرتقي في كل يوم من أيام حياته المباركة درجة ورفعة، أما الميت فقد طويت صحيفته وانقطع عمله وأمسى رهين ما قدم إن خيرا وإن شرا، وليس أدعى إلى الذكر ولا أكثر ترغيبا في تلك العبادة من هذا الأسلوب الأدبي الراقي.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه١/٥٣٩ رقم ٧٧٩

ويقول (صلى الله عليه وسلم) أيضا فيما رواه أنس بن مالك رضي الله عنه: (بين يدي الساعة سنون خداعة يتهم فيها الأمين ويؤتمن فيها المتهم وينطق فيها الرويبضة، قالوا وما الرويبضة ؟ قال: السفيه ينطق في أمر العامة)([1])

يتناول الحديث مقدمات الساعة وتناقضات الحياة من خلال الاستشراف النبوي للعلامات الأخروية، ويعد هذا الحديث من أظهر نماذج المفارقة لأنه يجمع بين المفارقة التصويرية والمفارقة اللفظية،

يقول الدكتور سعيد جمعة:(فحين ترى التافه يفتي في أمر عامة الناس، ويرسم لهم طريق حياتهم ويحدد لهم معايشهم، في الوقت الذي يسكت فيه فحول الرجال فإن الأمر جلل، ولذلك قيل عن هذا الوقت إنها سنون خداعات، ترى فيها الأحوال مقلوبة، يتخذ الناس الجهال علماء سواء مات أهل العلم أم كانوا أحياء، ويتسود على الناس ولاة الجور وحكام الجور عند غلبة الباطل وأهله، هذه السنون الخداعة تجسد لك المفارقة فيتهم فيها الأمين، ويؤتمن فيها المتهم، وتوكل أمور الناس إلى ناقص العقل والدين، فالكاذب عنده صادق، والصادق عنده كاذب، والخائن أمين والأمين خائن، وكل ذلك ثمرة مرة لتوسيد الأمر إلى غير أهله، وساعتها لا تنتظر إلا كل غريب ولا تتوقع إلا كل مالا يتوقع ، والذي يعنيني هنا جملة "وينطق فيها الرويبضة" وليس معنى ينطق هنا الكلام العادي، بل يتحدث في الشؤون العامة للناس، فيرسم معالم الطريق السياسي والاقتصادي والاجتماعي بل والأخلاقي وليس العجب في هذا فقط لكن العجب في أن ترى الناس يسمعون له ويطبقون ما يقول ويثنون على كلامه ويدعون الناس إلى الانضمام إليه، إنه أمر أشبه بالعجائب، وهنا تكمن المفارقة التي تجسد لك

(١) تخريج الحديث بهذا اللفظ أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ٣١٣/٣ رقم ٣٢٥٨

المسافة بين المتناقضين حين يلتقيان، وتريك اللامنطق، وتجبرك على السخرية وتنتزع منك الاستهزاء، ولذلك تشعر وأنت تتحدث عن المفارقة بضياع الأصول، وتزلزل القواعد، واختفاء القيم والأعراف)([1])

ولا يمكن للقارئ أن يطالع هذا الحديث دون أن يتوقف متعجبا من تلك المفارقة العجيبة وهذا التناقض المذهل، ولا شك أن تكذيب الصادق وتصديق الكاذب وتخوين الأمين وائتمان الخائن لهو دليل على فقدان المغزى وتلاشي المعايير مما يمهد لانعدام التوازن بين أركان الحياة ويعد علامة من علامات الساعة.

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن بين يدي الساعة فتنا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا)([2])

أراد الرسول أن يحذر من الفتن التي تدل كثرتها على دنوّ الساعة وتكاثر علاماتها وهذا ما يتجلى في قوله (ﷺ) إن الرجل –وإن استكمل مقومات الإيمان– فإنه ليس بمنأى عن الفتن المهلكة والشبهات المدمرة، (وفي ضوء ما ورد في الحديث من معهود لغوي سوف يفهم المتلقي هذا المعنى في ظاهره دون أن يشعر باستخدام الرسول ﷺ لأسلوب المفارقة من خلال التقابل أو الطباق، إذ إن (يصبح) تقابل (يمسي) وكلمة (مؤمنا) تقابل(كافرا)، وهذه إشارة لطيفة من النبي ﷺ جمع فيها بين لفظين متقابلين قصد منهما المفارقة بين اللفظين مما يساعد المتلقي على فهم المقصود ويقارن

---

(١) المفارقة في اللسان العربي ١٦

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٤/١٠٠ رقم ٤٢٥٩

بين الحالين فيتجنب أحدهما وهو المطلوب فعله وذلك بأن لا يكون من النوع الذي يصبح مؤمنا فيمسي كافرا) ([1])

وثمة لون آخر من ألوان المفارقة وهو ما يوحي به قوله ﷺ: (بين يدي الساعة) (حيث يفهم من القول أن الساعة أمامها شيء لكن المقصود هو أن الفتن قريبة من المسلم أو المسلمة كقرب اليد منه أو منها، وتلك المفارقة واضحة من خلال التشبيه المرسل المفصل كما يقول البلاغيون، فالقارئ لا بد أن يربط بين العلاقة الذهنية بين الألفاظ ليفهم المقصود بشكل مؤثر)([2])

وهنا يتجلى دور القارئ، وقد سبقت الإشارة إلى أن إدراك المفارقة وتبين مراميها يحتاج مزيدا من التأمل اليقظ والفهم الدقيق والقراءة الواعية.

---

(١) المفارقة اللغوية في مفهوم الخطاب العربي د.عاصم شحادة علي ص١٤

(٢) السابق

المبحث الثاني: المفارقة اللفظية

سبقت الإشارة إلى أن أن المفارقة اللفظية طريقة من طرائق التعبير يكون المعنى المقصود فيها مناقضا أو مخالفا للمعنى الظاهر، وتنشأ من كون الدال يؤدي مدلولين نقيضين: الأول مدلول ظاهر، والثاني مدلول سياقي خفي)(١) فالمفارقة اللفظية صورة من صور الاتصال بين الكاتب والقارئ ويرتبط هذا النمط بعدد من أشكال التعبير اللغوي منها الكناية والتعريض والتورية والتهكم والسخرية والمشترك اللفظي ....إلخ، وفيما يلي عرض لنماذج المفارقة اللفظية في البيان النبوي الشريف :

عن أبي الدرداء قال ﷺ: ألا أخبرُكُم بأفضلَ من دَرجةِ الصِّيامِ والصَّلاةِ والصَّدَقةِ قالوا بلَى قال صلاحُ ذاتِ البينِ فإنَّ فسادَ ذاتِ البينِ هيَ الحالِقةُ لا أقول حالقة الشعر ولكنها حالقة الدين)(٢)

والحديث يظهر المشاعر الإنسانية ويبرز العواطف البشرية والأدواء التي تتهدد الإيمان وفي مقدمتها داء الحسد الذي يتسلل إلى نفوس البشر حين يستولي عليها الضعف ويتراجع فيها الإيمان، ومن نتائج هذه المشاعر السلبية أنها تجرد المرء من دواعي الخير وتنزع منه الدين تماما كما يجرد الحالق الرأس من شعرها، وهي صورة محسوسة يدركها المرء بقليل من التأمل وإمعان النظر،

وتعد كلمة (الحالقة) محورا أساسيا في تلك الصورة الأدبية وهي تمثل جوهر المفارقة حيث تدل على إزالة الشعر الذي يمثل القشرة الخارجية للرأس مما يشي بنقص الدين وضعف الإيمان وعدم تغلغله في النفس واستقراره في الوجدان، بيد أن العبارة توحي في الوقت نفسه بشيء من الأمل والطمأنينة حيث تكون الإزالة لأطراف الشعر دون أصوله، (ولقد يبدو للنظرة العاجلة الفناء التام بالحلق الذي لا يبقي من الشعر شيئا

---

(١)ينظر: صفحة ١٧ من هذا البحث

(٢)أخرجه الترمذي في جامعه ٦٦٣/٤ رقم ٢٥٠٩ من حديث أبي الدرداء

وكأنما يقطع الحسد والبغضاء وجود الأمة ودينها من أصله كما يقطع الشعر من منابته خلافا للقص، ولكن الإمعان في هذه الاستعارة ودلالتها الحسية القديمة يؤكد أن الجذور تبقى في الجلد، وهذه الجذور هي الفطرة التي لا تعني شيئا إذا لم تتحرك إلى عمل، فهذا التعبير يبعث على الأمل برغم التحذير الشديد)([1])

ولقد آتت المفارقة اللفظية في كلمة (الحالقة) ثمارها برغم كونها لا تتعدى الكلمة الواحدة التي تتضمن معنى ظاهرا غير مقصود ومعنى خفيا هو المقصود وهو ضياع الدين وتراجع الإيمان نتيجة لتمكن الحسد والضغينة في القلوب، واقتدر التعبير النبوي الموجز على التنفير من تلك المشاعر السلبية التي توغر الصدور وتبث الكراهية وتمزق الصف وتشتت شمل الأمة وتتركها نهبا للتمزق والضعف والانهيار.

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن بعض أزواج النبيﷺ قلن للنبي: أينا أسرع بك لحوقا ؟ قال : أطولكن يدا .....الحديث ([2])

فالتعبير بطول اليد يحمل معنيين: الأول ظاهر وهو الطول الحسي لليد وهو الذي تبادر إلى أذهان أمهات المؤمنين (فقد جعلن يتذارعن ينظرن أيهن أطول يدا) ([3]) أما المعنى الخفي وهو الذي قصده النبيﷺ فهو طول اليد بالإنفاق وامتدادها بالعطاء وهنا نلحظ الالتقاء بين المفارقة والكناية (فالمفارقة تحمل دلالات متنوعة تنتقل ما بين السطح والعمق وصولا إلى الحقيقة الخفية) ([4]) والكناية (أن تتكلم بشيء وتريد غيره)([5])

وكلها طرائق تعبيرية ومنادح أدبية تدل على غزارة الدلالة ورحابة الميادين اللغوية وإن اتسمت المفارقة بالدهشة وإثارة الأذهان وتنبيه القارئ كي يسبح بخياله في مغامرة محببة لملاحقة المعاني طلبا للوصول وطمعا في الثواب،

---

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي ٢٢٥

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/١١٠حديث رقم ١٤٢٠

(٣) المجازات النبوية الشريف الرضي ت طه محمد الزيتي منشورات مكتبة بصيرتي د ت ٦٦

(٤) المفارقة في شعر الصنوبري يسري خليل أبو سنينة جامعة الخليل ٢٠١٥ ،١٧

(٥) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها أحمد مطلوب م لبنان ناشرون ط الثانية ٢٠٠٧، ١٥٤

وقد جاء التعبير بقوله ﷺ: (يدا) بالتنكير مع ألف الإطلاق للترغيب في العطاء وإسداء الخير، (فاليد لا تظل يدا بل تغدو فاعلية نفسية متجسمة في اليد فيرتكز البصر عليها كما تقترب الآلة المصورة من ركن لأهميته في التصوير وكأنما طول هذا العضو جعل ملامسة الآخرين وتطييب خواطرهم هينا سهل المنال، وجعل التلاحم بالآخر ممكنا، وكأنما نمت هذه الفضلة مع المحرك الذهني وهو المكرمة كما تنمو العضلة في التدريب الجسماني، فمتابعة حيثيات هذه الصورة تتوزع بين الخيال والحس وبين الذهن والتخيل حيث الملامح الروحية)([1])

وهكذا تتحول اللفظة النبوية المباركة إلى بقعة من الضياء يمتد عبر الأزمان لينير الطريق لكل من آنس في نفسه رغبة في الإنفاق وطمعا في مرافقة النبي ﷺ في أعالي الفردايس.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ (إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة فنعمت المرضعة وبئست الفاطمة)([2]) والحديث موجه لأولئك المتسابقين على المناصب الدنيوية فتراهم ينفقون القليل والكثير طمعا في الجاه وحبّا في المنصب ورغبة في المتاع الزائل، وها هو ذا رسول الإنسانية ومبعوث العناية الإلهية يحذرهم من الندامة في الآخرة والحسرة يوم القيامة،

ولقد صور النبي ﷺ الإمارة ونظائرها من المناصب بالمرضعة التي تفيء على رضيعها بألوان الغذاء وصنوف الراحة ومقومات الحياة ، وهذا ما نلحظه فيما يحيط به أولئك المتعاظمون أنفسهم من هالات التعظيم ووسائل النعيم في المأكل والمشرب

---

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي ٢٥٦

(٢)أخرجه البخاري في صحيحه ٦٣/٩حديث رقم ٧١٤٨

والملبس والمركب فضلا عما يستأثر به من الأموال والقصور والعيش الرغيد ، لكنه – شأن كل متاع دنيوي زائل –لا يلبث أن يحرم تلك المتع واللذائذ ويحال بينه وبين تلك المناصب وزخارفها الخادعة ليجد نفسه صفر اليدين من كل متاع خالي الوفاض من كل أصناف النعيم، شأن الطفل حين يفطم ويحال بينه وبين ثدي أمه، وتلك صورة بارعة يدركها بنو البشر في كل زمان ومكان، والعاقل من يفطم نفسه عن النعيم الدنيوي طمعا في الظفر بالنعيم الخالد والثواب الجزيل والعطاء الإلهي في الآخرة .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من خلع يدا من طاعة لقي الله يوم القيامة ولا حجة له ، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية)([1])

والحديث يوجه الأنظار إلى أهمية الوحدة وحتمية الطاعة لولي الأمر لأن أمر الأمة منوط بالجماعة المسلمة وقدرتها على الصمود أمام الأعداء والخصوم، ولقد صور النبي ﷺ عصيان الأوامر والخروج من الطاعة بخلع اليد، وهو تعبير دقيق لأن المبايعة تكون باليد لكن المقصود هنا ليس المعنى الظاهر للخلع وإنما المعنى الخفيّ للكلمة وهو انعدام الولاء وغياب الطاعة وبغض الحاكم وموالاة خصومه والتمرد عليه نظرا لما يترتب على ذلك من شق الصف وإضعاف الأمة فضلا عن التنازع والشقاق وهيمنة الأعداء وشماتة المتربصين.

واستكمالا للتأكيد على وحدة الأمة وخطورة الفرقة والتشرذم يقول ﷺ (ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية) وهنا يصور البيعة في صورة وشيجة قوية ورباط وثيق للدلالة على أهمية الحاكم في الإسلام لما له من دور في رأب الصدع وجمع

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ١٤٧٨/٣ رقم ١٨٥١

الشتات والحيلولة دون السقوط والتردي، والتعبير بالعنق يدل من طرف خفي على أن البيعة دونها حياة المسلم وأن التضحية في سبيلها رفعة للأمة وقوة لبنيانها وضمان لتماسكها ووحدتها بينما يؤدي التفريط فيها إلى الضعف والانهيار والتشرذم والفناء.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (من سئل عن علم فكتمه ألجم بلجام من نار)(١) ويأتي الحديث متضافرا مع الترغيب الإسلامي في نشر العلم الذي يعمر الأرض ويحقق الخلافة البشرية للكون والحياة، ولست بحاجة إلى سرد الآيات القرآنية أو الأحاديث النبوية التي تظهرنا على فضل العلم ومكانة العلماء، وحسبي أن أتوقف عند التحذير النبوي والوعيد الصارم الذي يلقي الرعب في قلوب أولئك المتخاذلين برغم ما أنفقوا من أعمار وما بذلوا من جهد في طلب العلم ومزاحمة العلماء لكن أحدهم حين أنيط به الإنفاق وتهيأت القلوب لتلقي ما عنده من العلم إذا هو يحجم، وعندما اتجهت إليه الألسن الراغبة فيما عنده إذا هو يكتم، فكان لزاما أن تجبهه تلك الكلمات المرعبة، ويصك أذنيه ذلك التهديد النبوي، ويلقي الحديث في روعه هذا العقاب المذري فتراه قد ألجم بلجام من النار جزاء وفاقا على ما ارتكس فيه من التخاذل والكتمان، والتعبير بـ(اللجام) ينطوي على مفارقة لفظية بارعة حيث تعرض صورة العالم المتخاذل وقد وضع بين شدقيه لجام الناقة العصية والدابة الشرود، وما دام قد اختار لنفسه هذا المصير المذري فكان لزاما أن تمتد الإهانة والإزراء ليكونا مصاحبين له بين الخلائق فيجمع بين الإهانة والتعذيب ليذوق وبال ما أقدم عليه بل ما أحجم عنه في الدنيا .

---

(١) أخرجه أبوداود في سننه ٣/٣٢١ رقم ٣٦٩٥

وفي سياق الدعوة إلى التلطف بالنساء تأتي المفارقة لتشكل مع الكناية الأساس الإسلامي للتعامل مع المرأة وتؤكد أهمية الرفق بها، فعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لسائق الإبل التي عليها نساؤه: رفقا بالقوارير) وفي رواية أخرى: يا أنجشة رويدك سوقا بالقوارير([1])

وفي الحديث تصوير للمرأة في صورة القارورة سواء في بريقها وصفائها أم في ضعفها ورقتها فهي كالزجاج تماما بتمام، ومن ثم فإن القسوة عليها والشدة في معاملتها أبعد ما تكون عن قيم الإسلام وهدي النبوة، وهكذا يلفت الحديث الأنظار إلى ما تحمله رسالة الإسلام للمرأة من التكريم بعد أن ظلت ردحا من الزمن دمية للغزل وملهاة للسفهاء.

(ولقد اشتمل الحديث على معنى ظاهر للمتلقي وهو أن النساء مثل القوارير الزجاجية، لكن النبي ﷺ استخدم أسلوب الكناية حتى يبين للمسلمين أن المرأة رقيقة كرقة الزجاجة فأي شيء يمكن أن يؤثر عليها فكأنها دعوة صريحة إلى التلطف مع المرأة بشكل عام، وهو نوع من المفارقة اللغوية التي يظهر فيها معنى باطن فيه عنصر الخفاء وهو المقصود)([2])

ومن الأحاديث التي تتجلى فيها المفارقة اللفظية قوله ﷺ فيما رواه معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه: (المؤذنون أطول الناس أعناقا يوم القيامة)([3]) فالتعبير بطول العنق يحمل معنيين: الأول ظاهر وهو الطول الحسي للعنق وهو غير مقصود برغم كونه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، ٣٥/٨، حديث رقم ٦١٤٩

(٢) المفارقة اللغوية في مفهوم الخطاب العربي د.عاصم شحادة علي مجلة الأثر بالجامعة الإسلامية العالمية ماليزيا العدد ١٠ د ت ١٠

(٣) أخرجه مسلم ٣٨٧

مما يمتدح به وبرغم ما ذكره عدد من شراح الحديث (أن الناس يعطشون يوم القيامة، وإذا عطش الإنسان انطوت عنقه والمؤذنون لا يعطشون فأعناقهم قائمة)([1])

والمقصود من الحديث ما أعده الله عزّ وجل للمؤذنين من التكريم، والمفارقة ترسم مشهد العلو والارتفاع الذي تجسده الأعناق المشرئبة والرقاب المتطاولة والأصوات المتعالية صدحا بالحق ودعوة للخلق وإيذانا بالقرب الذي تتهيأ له النفوس وتهفو إليه الأرواح وتقرّ به العيون وتلتذ بسماعه الآذان، ومن ثم كان التكريم والتشريف جائزة للمؤذنين ورفعة لدرجاتهم، (وعلو الأعناق كناية عن التكريم يوم الجزاء، وهم بذلك يشرئبون إلى النعيم الأخروي العميم ويستشرفون المباهج قبل غيرهم، وقربهم من الثواب يعني قربهم من الله تبارك وتعالى، وقد استخدم العنق لأنه يتطاول مع المد الجميل للأصوات وتنغيمها في أثناء الأذان) ([2]) والحديث بعباراته الموجزة وكلماته الموحية يثبت ألوانا من التكريم للمؤذنين ويعرّض بغيرهم من خلال صيغة التفضيل (أطول)، ولا غرابة فالمؤذنون يرددون عبارات التعظيم والتقديس لله عز وجل في الدنيا فاستحقوا الرفعة والتكريم في الآخرة فضلا عن مسارعتهم لتلبية النداء وسعيهم لإعمار المساجد في الوقت الذي يتكاسل فيه كثير من القاعدين والمتغافلين.

وأختم بهذا الحديث الجامع لعدد من الأحكام والتعاملات حيث يقول النبي ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: نهى رسول الله ﷺ أن يبيع حاضر لباد، ولا تناجشوا، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه، ولا يخطب على خطبة أخيه، ولا تسأل المرأة طلاق أختها لتستفرغ ما في صحفتها)(٣)

---

١) ينظر: شرح سنن ابن ماجة ت كامل عويضة م نزار مصطفى السعودية ط الأولى ١٩٩٩، ١١٨٤/١

٢) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف٢٥٤

(٣)البخاري ٢١٤٠

وحسبي أن أتوقف عند النهي النبوي عن طلب المرأة من زوجها أن يطلق ضرّتها لتستأثر به دونها وقد عبر النبيﷺ عن هذا المعنى باستفراغ ما في الإناء، وليس المقصود إفراغ الإناء من الطعام فحسب وإنما الاستئثار بالمال والهيمنة التامة على ما يحوزه الرجل من مقومات الحياة الحسية والمعنوية، (فالمرأة وعاء الرجل جنسيا وعاطفيا وهي مستودع لنسبه ومشاعره والمقصود ما يحتويه جسدها من ملذات تشتمل على الطعام والشراب والجنس، فضلا عن الإمتاع الروحي للقاء الزوجي، كل هذا عبر عنه بالإناء الكائن الجزئي تعبيرا لطيفا مشيرا إلى الإنفاق الكلي والمتعة الحسية والروحية في الزواج)([1])

أضف إلى ما سبق أن التعبير بقوله (لا تسأل ...) يحمل في طياته قدرا كبيرا من الرقي والتلطف ولا يخفى ما يكتنف مسالك هؤلاء النسوة من المكايد والمؤامرات.

---

١) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف ٢٧٣

المبحث الثالث: مفارقة الشخصيات

ويقصد بها: الاستعانة بالنماذج البشرية المتناقضة كالمؤمن والكافر والمطيع والعاصي والصالح والطالح للتعبير عن الفكرة وتقريبها إلى الأذهان وتصوير ما يكتنف الحيوات المختلفة في الموقف والمصير، وليس معنى ما سبق أن يشتمل الأثر النبوي على عدد من الشخصيات بأبعادها المختلفة، فالبناء الفني للشخصية القصصية في الحديث النبوي ليس مقصودا لذاته ولكن بالقدر الذي يحقق الغاية من القصة وهي الإقناع والتأثير، بالإضافة إلى (تحقيق الغاية المضمونية التعليمية التربوية التشريعية وضمانات تحولها إلى منجز فعلي في السلوك البشري للمستهدفين بالخطاب)([1])

ونستطيع أن نتبين هذا اللون في عدد غير قليل من الأحاديث النبوية ولعل أظهرها حديث الأبرص والأقرع والأعمى، روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ ثَلَاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ، وَأَقْرَعَ، وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ – أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ، شَكَّ إِسْحَاقُ – إِلَّا أَنَّ الْأَبْرَصَ، أَوِ الْأَقْرَعَ، قَالَ أَحَدُهُمَا: الْإِبِلُ، وَقَالَ الْآخَرُ: الْبَقَرُ– قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذَرَنِي النَّاسُ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا،

---

(١) مقدمة في نظرية البلاغة النبوية د. عيد بلبع سياقات ط أولى ٢٠٠٨، ٢١٥

قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرَ بِهِ النَّاسَ، قَالَ: فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا. فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا. قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ، قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ؟ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا، فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ، قَالَ: وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ. قَالَ: وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ، انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ، ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ، شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، إِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»(١)

والحديث يقوم على المقارنة بين منطق الشاكرين والكافرين بالنعم الإلهية ويضرب المثل بنماذج بشرية محسوسة، وأركان المفارقة تتجلى في طرفين : الطرف الأول ويمثله الأبرص والأقرع اللذان أنفقا عمريهما في تمني الشفاء من الأمراض التي ألقت بآثارها المؤلمة على نفسيهما فضلا عن التعلق بآمال الغنى وأحلام الثراء بسبب ما نكبا به من الفقر

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/١٧١حديث رقم ٣٤٦٤

والحاجة ، ولعل مما يؤكد ذلك ترتيب المبتلين على هذا النحو استشعارا لما يكتنف الأبرص والأقرع من الألم النفسي الذي يتضح عند مخالطة الآخرين ومعاشرتهم،

ومن عجيب طبائع هذا الصنف من البشر أن أحدهما سرعان ما يتناسى آلام الأمس ويتنكر للماضي ويجحد النعمة ويبخل بالعطاء ويقلب ظهر المجنّ للضعفاء والمحتاجين، يقول الدكتور عبده زايد:(فأنت تلمح القلق والاضطراب والخوف وضعف الإيمان بالله والطمع في شخصيتي الأبرص والأقرع وهي أكثر وضوحا عند الأبرص، تعرف كل ذلك من تحليل أجوبتهم وطلباتهم من غير حاجة إلى تحليل الشخصية وغوص في قاع النفس وإجراء حوار داخلي مع النفس، أو استرجاع ذكريات الماضي كما يفعل كتّاب القصة، والنتيجة التي انتهى إليها أمرهم تتسق مع ما عرفناه عنهم من لغتهم وأسلوبهم وطريقة تفكيرهم)([1])

أما الطرف الثاني للمفارقة فيتجلى في هذا النموذج الإيماني الراقي الذي يعد مثلا للمؤمن المتبصر برغم العمى، لكن نور الإيمان حين يقذفه الله في القلب فإنه يحيل الظلمة نورا وتتضاءل بجانبه سائر المتع والزخارف ،

والحق أن هذا الأعمى قد ضرب أروع المثل في حالي العطاء والمنع والمرض والعافية والانتفاع بالماضي ليعمر الحاضر وينعم بالمستقبل، ذلك أنه حين ابتلي بفقد البصر لم يجزع ولم يسخط ، وفي الوقت ذاته لم ير بأسا في طلب الشفاء مما ألمّ به من العمى، وحين خير بين أحب الأموال كان اختياره للغنم دليلا على قناعة النفس والرضا باليسير بخلاف صاحبيه اللذين اتسم سلوكهما بالطمع والجشع والشح والأثرة، وأهم

(١) من أسرار النظم في القصص النبوي د. عبده زايد دار الهداية ١٩٩٢، ٥٢

مما سبق أنه عندما حانت اللحظة الحاسمة وجاء وقت الاختبار وطلب منه الإنفاق إذا به يسخو وتتدفق يداه بالعطاء حمدا وامتنانا،

(والواقع أن هناك علامة فارقة ميزت الأعمى بهذا الموقف عن زميليه، ويمكن أن نستكنهها من واقع شخصية الأعمى كما قدمتها القصة النبوية وهي فداحة المأساة بالنسبة للأعمى، فالمعاناة العنيفة لدى الأعمى هي السبب في اختلاف موقفه عن صاحبيه) ([1])

وثمة أمر لا يمكن إغفاله في هذا السياق وهو قوة إيمان الأعمى ورضاه بما ابتلي به مما كان سببا في اجتيازه لهذا الاختبار في أمن وسلام، والحديث يلقي في الروع البشري أن العطاء والمنع والمرض والعافية والفقر والغنى والسعادة والشقاء إنما هي خزائن مفاتحها بيد الله وحده وعلى العاقل أن يجتهد في التقرب إليه سبحانه والعمل بطاعته والرضا بقضائه والتسليم بحكمته، ولقد نجح الأسلوب القصصي متضافرا مع المفارقة بين موقف الشخصيات ومصائرها في التعبير عن تلك القيم الإسلامية الراقية أصدق تعبير وأجمله وأوفاه.

ويعد حديث أم زرع من أهم نماذج مفارقة الشخصيات، فعن عروة بن الزبير رضي الله عنه أن عائشة رضي الله عنها قالت: " جلس إحدى عشرة امرأة فتعاهدن وتعاقدن أن لا يكتمن من أخبار أزواجهن شيئاً،

قالت الأولى: زوجي لحم جمل غث، على رأس جبل، لا سهل فيرتقى ولا سمين فينتقل،

قالت الثانية: زوجي لا أبث خبره إني أخاف أن لا أذره إن أذكره أذكر عجره وبجره،

---

(١) القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعية د.محمد بن حسن الزير وزارة الإعلام السعودية ط الثانية ١٩٨٥، ٢٨٧

قالت الثالثة: زوجي العشنّق إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق،

قالت الرابعة: زوجي كليل تهامة لا حرّ ولا قرّ ولا مخافة ولا سآمة،

قالت الخامسة: زوجي إن دخل فهد وإن خرج أسد ولا يسأل عما عهد،

قالت السادسة: زوجي إن أكل لف وإن شرب اشتف وإن اضطجع التف ولا يولج الكف ليعلم البث،

قالت السابعة: زوجي غياياء أو عياياء طباقاء كل داء له داء شجّك أو فلّك أو جمع كلاًّ لك،

قالت الثامنة: زوجي: المسّ مسّ أرنب والريح ريح زرنب،

قالت التاسعة: زوجي رفيع العماد طويل النجاد عظيم الرماد قريب البيت من الناد،

قالت العاشرة: زوجي مالك وما مالك ؟! مالك خير من ذلك له إبل كثيرات المبارك قليلات المسارح وإذا سمعن صوت المزهر أيقن أنهن هوالك،

قالت الحادية عشرة: زوجي أبو زرع فما أبو زرع؟! أناس من حلي أذني، وملأ من شحم عضدي، وبجحني فبجحت إلىّ نفسي، وجدني في أهل غنيمة بشق فجعلني في أهل صهيل وأطيط ودائس ومنقّ، فعنده أقول فلا أقبّح وأرقد فأتصبح وأشرب فأتقنّح، أمّ أبي زرع فما أمّ أبي زرع؟! عكومها رداح وبيتها فساح، ابن أبي زرع فما ابن أبي زرع؟! مضجعه كمسلّ شطبة ويشبعه ذراع الجفرة، بنت أبي زرع فما بنت أبي زرع؟! طوع أبيها وطوع أمها وملء كسائها وغيظ جارتها، جارية أبي زرع فما جارية أبي زرع، لا تبث حديثنا تبثيثا، ولا تنفث ميرتنا تنقيثا، ولا تملأ بيتنا تعشيشاً، قالت: خرج أبو زرع والأوطاب تمخض، فلقي امرأة معها ولدان لها كالفهدين يلعبان من تحت خصرها برمانتين فطلقني ونكحها فنكحت بعده رجلاً سرياً ركب شرياً وأخذ خطياً وأراح علي نعماً ثرياً وأعطاني من كل رائحة زوجاً وقال: كلي أم زرع وميري أهلك، قالت: فلو

جمعت كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغر آنيةِ أبي زرع ، قالت عائشة: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كنت لك كأبي زرع لأم زرع)([1])

والمفارقة هنا بين نمطين من الشخصيات وصنفين من الأزواج، أما الصنف الأول فهو صنف بغيض قد اجتمعت فيه أسوأ الأخلاق وألأم الطباع سواء في ذلك الزوج الأول كثير الشر قليل الخير سيء الخلق لئيم الطبع لا أمل في إصلاحه ولا سبيل أمام زوجه لإرضائه، أما الزوج الثاني فقد جمع بين ما خفي من العيوب وما ظهر ومن ثم فقد آثرت زوجه الصمت عنها لكثرتها، أما الثالث فلا خير فيه لحمقه وخفة عقله فضلا عما يتصف به من الطول المفرط بلا نفع ولا فائدة ، ويلحق بهؤلاء الثلاثة زوج السادسة والسابعة ذلك أن الأول لا يعي من آداب الطعام شيئا بله معاملة النساء، والثاني غليظ الطباع قاسي القلب كثير الغضب وحسبنا في الدلالة على ذلك قولها: (كل داء له داء)،

وفي مقابل هذا الصنف تطالعنا أوصاف محببة لعدد من الأزواج فهناك من هو هادئ الطباع كريم الخلق ليس فيه أذى بل هو أشبه بليل تهامة ذي النسيم العليل والهواء النقي، وهناك من الأزواج من يؤثر التغافل عما يكره برغم ما يتسم به من القوة والبسالة، وآخر طيب الرائحة لين الجانب رقيق الطباع حسن العشرة، وآخر رفيع العماد عظيم الشرف طويل القامة مرفوع الهامة وكلها أوصاف تدل على الكرم والسؤدد،

واستكمالا للأوصاف الإيجابية تطالعنا تلك الصورة التي رسمتها أم زرع لزوجها وما حشدته له من أوصاف وشمائل، يقول القاضي عياض: (أنت إذا تأملت كلام أم زرع

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢٧/٧حديث رقم ٥١٨٩

وجدته مع كثرة فصوله وقلة فضوله مختار الكلمات، واضح السمات، بيّن القسمات، قد قدرت ألفاظه قيس معانيه ، وقررت قواعده ، وشيدت مبانيه ، وجعلت لبعضه في البلاغة موضعا ، وأودعته من البديع بدعا ....)([1])

ولا غرابة فلقد جمعت أم زرع لزوجها من الصفات ما يدل على كرم الطباع وحسن العشرة وحميد الخصال، ولم يقتصر حديثها على الزوج بل تجاوزه إلى مدح أمه وولده وجاريته وجميع ما يتصل به على الرغم من تطليقه إياها وزواجه بغيرها، وبالجملة فقد حشدت أم زرع ونظائرها من النساء عددا من الأوصاف الإيجابية للزوج، ورسمت الصورة المثلى والنموذج الأرقى للرجل على مر العصور، وحسبنا دليلا على هذا قول النبيﷺ لعائشة رضي الله عنها: (كنت لك كأبي زرع لأم زرع)،

وبوجه عام فإن الحديث يذكر كثيرا من أوصاف الأزواج سواء في ذلك ما كان منها كريما أو لئيما وجمع بين كلا النموذجين في إطار موحد مع براعة الوصف ودقة التحليل وجمال الصياغة وحسن اختيار الكلمات والألفاظ، (فقد استوجبت غرابة خلق بعض الأزواج وغلظة تعاملهم الألفاظ الغريبة، كما جاءت الألفاظ الرقيقة العذبة في كلام الزوجات اللواتي حسنت أخلاق أزواجهن، وحسن تعاملهم معهن، فكانوا أرق من النسيم وألين من مسّ الأرنب)([2])

---

(١) بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد ، القاضي عياض بن موسى اليحصبي ت صلاح الدين الإدلبي، وزارة الأوقاف المغربية ١٩٧٥/ ١٨٦،١٨٧

(٢) حديث أم زرع دراسة بلاغية دكتور عبد العزيز صالح العمار مجلة جامعة أم القرى لعلوم اللغات وآدابها العدد الأول ٢٠٠٩ ، ١٩٦

وهنا يمكن القول إن المفارقة في حديث أم زرع نجحت في وضع الأساس الصحيح للبيت المسلم ودفع المجتمعات الإسلامية نحو مزيد من السمو والارتقاء على ضوء من الكتاب والسنة والقيم العربية الأصيلة.

ومن مفارقة الشخصيات أيضا قول النبي (صلى الله عليه وسلم) فيما رواه جابر بن عبد الله: (إنَّ مِن أحبِّكم إليَّ وأقربِكُم منِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أحاسنَكُم أخلاقًا، الموطؤون أكنافا الذين يألفون ويؤلفون، وإنَّ مِن أبغضِكُم إليَّ وأبعدِكُم منِّي يومَ القيامةِ الثَّرثارونَ والمتشدِّقونَ والمتفَيهِقونَ، قالوا: يا رسولَ اللَّهِ، قد علِمنا الثَّرثارينَ والمتشدِّقينَ فما المتفَيهقونَ؟ قالَ: المتَكَبِّرونَ)(١)

والحديث يهيئ الأمة لتلقي التعاليم والامتثال للأوامر واجتناب النواهي مبتدئا بالترغيب الذي يومئ إلى الرحمة المحمدية والرأفة النبوية والطمع في القرب من المنزلة المحببة التي تتوق إليها النفوس المؤمنة، ثم يأخذ في عرض مقومات هذا الحب فتراها متجسدة في حسن الخلق ونبل الصفات، ولا غرابة فإن بناء منظومة الأخلاق ليس قيمة إسلامية وخلقا نبويا فحسب وإنما هو الغاية الأسمى من بعثة الأنبياء وتواتر الشرائع وتوالي الرسالات، وقوله (الموطؤون أكنافا) عبارة نبوية تدل على الطبائع الرقيقة والشمائل المحمودة، واستكمالا لهذه المنظومة الأخلاقية تراهم (يألفون ويؤلفون) إنهم –لحسن خلقهم وأصالة معدنهم ومعرفتهم بطبائع البشر وحقائق الوجود- يألفون الناس فيترفعون عن أخطائهم ويتغافلون عن إساءاتهم ويغفرون زلاتهم ، وبدهي أن يألفهم الناس ويسعون للقرب منهم ، وبهذه المسالك وتلك الأخلاقيات يتعارف البشر وتتواصل المجتمعات وتتحد الأمم.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ٤/٣٧٠ رقم ٢٠١٨

وفي المقابل يذكر النبيﷺ صنفا بغيضا من البشر قد استحق غضب الله ورسوله وسخطهما في الدنيا والآخرة فضلا عن البغض من سائر المخلوقين، وما ذاك إلا لما يكتنف مسالكهم البغيضة من الكبر والاستعلاء، وما يتصفون به من الثرثرة الفارغة والتشدق الممجوج والتكلف البغيض والادعاء الكاذب وتلك آفات لها آثارها المدمرة على الأفراد والمجتمعات وتقويض بنيانها ونشر البغضاء والتنازع بين صفوفها،

كما يتجلى دور الألفاظ وأثر الصياغة في تسليط الضوء على طرفي المفارقة، وحسبك دليلا على ذلك قولهﷺ في التعبير عن مسالك المؤمنين (أحاسنكم أخلاقا– الموطؤون أكنافا– يألفون ويؤلفون) وكلها ألفاظ تحمل في طياتها معاني الشفقة واللين والألفة والتواضع، بينما اختار في وصف الأشرار عبارات: (الثرثارون– المتشدقون– المتفيهقون) ولو أنه اقتصر على إحدى هذه الصفات لاستدعى النفور من طبائعهم والتنزه عن مخالطتهم، لكنه حشد لها من النظائر ما يدفع المرء دفعا إلى معاداتهم والتحذير من أخلاقهم السيئة ومسالكهم البغيضة وشرورهم التي لا يسلم منها برّ ولا فاجر.

ويعد حديث الجليس الصالح من أظهر نماذج مفارقة الشخصيات وفيه يضرب النبيﷺ المثل بصورة شائعة لدى العامة والخاصة، ونماذج بشرية تعيش بين ظهرانينا، وبدهي أن ضرب الأمثال من أرقى الأساليب الأدبية وأقربها إلى سائر الأفهام وشتى العقول، يقولﷺ فيما رواه أبو موسى الأشعري –رضي الله تعالى عنه: إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ، وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ، كَحَامِلِ الْمِسْكِ، وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ

الْمِسْكِ: إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً،وَنَافِخُ الْكِيرِ:إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً)([1])

والمفارقة في الحديث بين نوعين من الشخصيات ونمطين من النماذج البشرية، أولهما الجليس الصالح وثانيهما جليس السوء، ولقد ضرب النبيﷺ المثل بالجلساء لأنه مشهد مألوف لدى سائر البشر حيث لا يخلو أحد من مخالطة الناس ومجالستهم (فالإسلام دين تجمع وإلفة، ونزعة التعرف إلى الناس والاختلاط بهم أصيلة في تعاليمه، وهو لم يقم على الاستيحاش ولا دعا أبناءه إلى العزلة العامة والفرار من تكاليف الحياة ولا رسم رسالة المسلم في الأرض على أنها انقطاع في دير أو عبادة في صومعة ، كلا ، كلا ، فإن الدرجات العالية لم يعدها الله عز وجل لأمثال أولئك المنكمشين الضعاف)([2])

والمسلم المتبصر والمؤمن الساعي إلى مرضاة خالقه وإصلاح نفسه والقيام بأمر دينه يتخير جليسا يعينه على الخير ويأخذ بيده إلى الطاعة ويسلك به سبل الهداية والرشاد، ولقد صوره النبي في صورة محببة ونمط مألوف وهو حامل المسك الذي لا يعدم جليسه فائدة، فهو إما أن يهب جلساءه من عطره أو يبيعهم من سلعته، وإما أن يشموا من ريحه الطيب وعطره الأخاذ، وبالجملة فإنك لا تعدم خيرا في سائر الأحوال وتلك ثمرة مجالسة الأتقياء ومخالطة الصالحين الذين يرشدون جلساءهم إلى كل خير ويدلونهم على كل نفع ويحذرونهم من كل شر ويأخذون بأيدهم إلى درب النجاة في الأولى والآخرة،

---

١) أخرجه مسلم ٤٨٩١

(٢)الغزالي خلق المسلم دار الدعوة طبعة السادسة ١٩٩٩،١٧٠

وعلى النقيض من ذلك يوحي الربط بين جليس السوء ونافخ الكير بأن جليسه لا يخلو من المضرة سواء في بدنه أم في ثيابه أم ما يزكم أنفه من خبيث ريحه وقبيح نتنه، وتلك حال جليس السوء الذي يصرف جليسه عن الخير ويدفعه إلى الشر ويبغض له الطاعة ويزين له المعصية، وهكذا ترسم المفارقة -بالتضافر مع المثل النبوي- معالم الطريقين أمام أعين العقلاء وأفهام ذوي الألباب والبصائر لتأخذ بأيديهم إلى طريق الخير والفلاح والنجاة في الدنيا والآخرة، ولقد طوى الحديث ذكر كثير من صفات الجليسين كي يطلق العنان لأذهان المتلقين لترسم الصورة المثلى لكلا النوعين بحيث يمكن القول بأن المفارقة في الأحاديث النبوية قادرة على صياغة المعايير الإسلامية للنماذج البشرية وتحديد ملامح الأخيار والأشرار؛

وبيان ذلك أن الجليس الصالح الذي أومأت إليه خصال حامل المسك هو الذي يدل على الخير ويرشد إليه ويرغب فيه بالعظة والنصح تارة وبالسؤال عن العلم النافع تارة وبالقدوة وحسن التأسي تارة أخرى وتلك أظهر مسالك الأخيار وصنائع الصالحين، أما جليس السوء فإن صحبته لا تخلو من الشرّ سواء في ذلك صرف الناس عن الخير والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف إلى غير ذلك من طبائع الأشرار وصفات الناكبين عن الطريق السوي والعقل الرشيد،

وثمة ملاحظة يحسن إثباتها هنا وهي أن الأمر ليس قصرا على ذينك النوعين من الجلساء إنما هو التصنيف النبوي لطوائف الأخيار وصنوف الأشرار، ولا أبعد إذا قلت إن القسمة النبوية تكتنف جموع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، والتصنيف الوارد في الحديث يناط به رسم الحدود الفاصلة بين الأخيار والأشرار، وهنا يتجلى دور المفارقة التي تؤكد بما لا يدع مجالا لأدنى شك قدرتها على تحقيق الغايات التربوية والأهداف التشريعية للحديث النبوي الشريف.

خاتمة البحث

المفارقة وسيلة تعبيرية تتجلى فيها حقائق الحياة بما يكتنفها من التناقضات، ولا غرابة فالصراع بين الخير والشر والحق والباطل قائم منذ الأزل، ولقد أثبت البحث أن المفارقة شاخصة في اللسان العربي وحاضرة في القرآن الكريم كما أنها لا تغيب عن الحديث النبوي، مما يؤكد حقيقة أن هذا اللون من التعبير له جذوره في النفس العربية في أرقى نماذجها وأبهى صورها،

ولقد اجتهد الباحث في صياغة مفهوم المفارقة مستعينا بالمعاجم اللغوية والدراسات الأدبية لدى العرب والغربيين، كما حرص على إلقاء الضوء على حضور المفارقة في التراث العربي شعرا ونثرا مع الاقتصار على أظهر أنماطها وتتمثل في:

-المفارقة التصويرية، وهي التي تبرز التناقض بين طرفين متقابلين، حيث تساق العبارات والصور في إطار من التجاور دون تعليق؛ لإبراز فداحة المفارقة من جهة وتحفيز المتلقي نحو الفهم العميق والتأثر الإيجابي والعمل النافع من جهة أخرى.

-المفارقة اللفظية، وتنشأ من كون اللفظ يدل على معنيين: الأول ظاهر والثاني خفي، ويتضافر هذا النمط مع عدد من أشكال التعبير اللغوي والبلاغي مثل: الكناية والتعريض والتهكم والسخرية والمشترك اللفظي.

-مفارقة الشخصيات وتقوم على الاستعانة بالنماذج البشرية المتناقضة للتعبير عن الفكرة وتقريبها إلى الأذهان، وتعد الشخصيات بمواقفها ومصائرها محورا أساسيا لهذا اللون .

وبوجه عام فقد نجحت المفارقة في إبراز القيم الدينية ورسم النماذج الإسلامية وتحقيق الغايات التربوية والتشريعية سواء في ذلك الترغيب في طاعة الله ورسوله، أو وضع أسس التعاملات وبناء الأسرة المسلمة، أو التحذير من اقتراف الذنوب والحث على التوبة، أو الرضا بقضاء الله والتسليم بحكمته، فضلا عن إرساء الدعائم الأخلاقية، إلى غير ذلك من مقاصد الشريعة وهدي النبوة ،

وفي الختام أسأل الله أن يتجاوز عن الزلات وأن يجعل هذا العمل في ميزان الحسنات وأن ييسر الخير لي ولسائر المسلمين في كل ما هو آت،

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

مراجع البحث

١-إعجاز القرآن والبلاغة النبوية دار الكتاب العربي ط التاسعة ٣٢٥/١٩٧٣

٢-ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر مكتبة الأنجلو ط١، ١٩٦٢

٣-البيان والتبيين للجاحظ دار الهلال، بيروت ١٤٢٣هـ الجزء الثاني .

٤-البداية والنهاية لابن كثير تحقيق مصطفى عبد الواحد دار المعرفة بيروت ١٩٧٦

٥-بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد للقاضي عياض بن موسى اليحصبي ت صلاح الدين الإدلبي، وزارة الأوقاف المغربية ١٩٧٥

٦-التصوير الساخر في القرآن الكريم د.عبد الحليم حفني الهيئة العامة للكتاب١٩٩٢

٧-الحيوان للجاحظ ت عبد السلام هارون ط: الثانية م الحلبي ج: الثالث

٨-حديث أم زرع دراسة بلاغية د. عبد العزيز العمار مجلة جامعة أم القرى العدد الأول ٢٠٠٩

٩-خلق المسلم ، محمد الغزالي دار الدعوة الطبعة السابعة ١٩٩٩

١٠- دلائل الإعجاز ت محمود شاكر م الخانجي ٢٠٠٩

١١- الرمز والرمزية في الشعر المعاصر د. محمد فتوح أحمد دار المعارف ١٩٧٧

١٢- الروض الداني لأبي القاسم الطبراني ت : محمد شكور، دار عمار بيروت عمان ط : الأولى١٩٨٥
١٣- سنن ابن ماجه ت شعيب الأرنؤوط دار الرسالة العالمية ط الأولى، ٢٠٠٩ م
١٤- السنن الكبرى للبيهقي ت الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي مركز هجر ط: الأولى ٢٠١١ م
١٥- الصورة الفنية في الحديث النبوي د. أحمد ياسوف دار المكتبي دمشق ط الثانية ٢٠٠٦
١٦- عن بناء القصيدة العربية الحديثة د.علي عشري م الشباب
١٧- عون المعبود شرح سنن أبي داود العظيم آبادي: دار الكتب العلمية بيروت ط: الثانية ١٤١٥
١٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري لابن حجر دار المعرفة ١٣٧٩ت: محمد فؤاد عبد الباقي
١٩- القاموس المحيط للفيروزآبادى ت :مكتب تحقيق التراث بيروت ط: الثامنة ٢٠٠٥
٢٠- القصة التمثيلية في نماذج من الحديث النبوي الشريف قراءة أسلوبية، أسماء الخطاب وعلي يونس مجلة جامعة النجاح للأبحاث (العلوم الانسانية) المجلد٢٧ ،٢٠١٣م
٢١- القصص في الحديث النبوي دراسة فنية وموضوعيةد.محمد حسن الزير وزارة الإعلام السعودية ط الثانية ١٩٨٥

٢٢- الكوكب الدري على جامع الترمذي ت محمد زكريا الكاندهلوي م ندوة العلماء الهند ١٣٩٥
٢٣- المجازات النبوية الشريف الرضي ت طه محمد الزيتي منشورات مكتبة بصيرتي د ت
٢٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل ت أحمد محمد شاكر : دار الحديث ط : الأولى ١٩٩٥
٢٥- معجم المصطلحات البلاغية وتطورها أحمد مطلوب م لبنان ناشرون ط الثانية ٢٠٠٧
٢٦- معجم العين للخليل بن أحمد ت د.عبد الحميد هنداوي دار الكتب العلمية ط الأولى ٢٠٠٣
٢٧- مقدمة في نظرية البلاغة النبوية د.عيد بلبع سياقات ط أولى ٢٠٠٨
٢٨- مقاييس اللغة ابن فارس ت عبد السلام محمد هارون دار الفكر١٩٧٩
٢٩- المفارقة القرآنية د. محمد العبد دار الفكر العربي ١٩٩٤
٣٠- المفارقة وصفاتها تأليف د سي ميوك ترجمة الدكتور عبدالواحد لؤلؤة موسوعة المصطلح النقدي المجلد الرابع المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط الأولى ١٩٩٣
٣١- المفارقة اللغوية في مفهوم الخطاب العربي د.عاصم شحادة علي مجلة الأثر بالجامعة الإسلامية ماليزيا العدد ١٠ د ت

٣٢- المفارقة اللغوية في الدراسات الغربية والتراث العربي القديم د نعمان عبد السميع دار العلم والإيمان ٢٠١٤
٣٣- المفارقة في شعر أبي العلاء المعري هيثم محمد جديتاوي إربد الأردن ٢٠١٢
٣٤- المفارقة في اللسان العربي د سعيد جمعة مجلة كلية اللغة العربية بالمنوفية ٢٠١٥
٣٥- المفارقة نبيلة إبراهيم ، فصول المجلد السابع العددان الثالث والرابع أبريل – سبتمبر ١٩٨٧
٣٦- المفارقة التصويرية في القرآن الكريم دراسة للباحث منشورة بمجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود العدد الثاني والثلاثون المجلد الخامس٢٠١٩
٣٧- من أسرار النظم في القصص النبوي د. عبده زايد دار الهداية ١٩٩٢
٣٨- المفارقة في شعر الصنوبري يسري خليل أبو سنينة جامعة الخليل ٢٠١٥
٣٩- منة المنعم في شرح صحيح مسلم، صفي الرحمن المباركفوري دار السلام الرياض ط الأولى، ١٩٩٩ م
٤٠- وحي القلم، مصطفى صادق الرافعي المكتبة العصرية مراجعة د. درويش الجويدي الجزء الثالث د ت

الفهرس

- الملخص العربي.....١٨٩
- الملخص باللغة الأجنبية.....١٩٠
- المقدمة ١٩١
- التمهيد ١٩٤
- مفهوم المفارقة.....١٩٤
- المفارقة في التراث العربي.....١٩٧
- أنماط المفارقة.....٢٠٣
- المبحث الأول: المفارقة التصويرية ٢٠٩
- المبحث الثاني: المفارقة اللفظية ٢٢٥
- المبحث الثالث: مفارقة الشخصيات ٢٣٣
- خاتمة البحث.....٢٤٤
- مراجع البحث.....٢٤٦
- الفهرس..... ٢٥٠